الباب الثالث

الدفاع عن الإسلام

{أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز}.

الحج ٣٩ - ٤٠

{وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين}.

التوبة ٣٦

ليس بيان الانتصارات العسكرية التي فاجأ بها رسول الله الدنيا بغرض من أغراض هذا الكتاب وإنما دخلت كلمات عنها في هذا الباب للمعاني العالية التي يمكن إجمالها في أن الاستشهاد في المواقع كان لدخول الجنة لا لصناعة الحرب، وفي حروب النبي جنود لا يراها الناس. وحسبنا من الوقائع قليل نتوكأ عليه إلى ما نتغياه.

نزل الوحي بمكة بأصول الدين والدنيا وفيها قاعدتان قرينتان، هما الشورى لاستقرار المجتمع والجهاد للدفاع عنه. وكلاهما فرض على الجماعة وعلى الأفراد.

ففي الشورى قوة للجماعة تستنهض فضائلها وتجمعها، وللفرد في ذاته وملكاته، تهبه الثقة في نفسه وتحمله مسئولية مجتمعه. أما الجهاد فهو "القوة الضاربة" للدفاع عن الإسلام.

جمع الله تعالى في الآيات ٣٨ حتى الآية ٤١ من سورة الشورى وهي من الوحي المكي أكثر من تكليف واحد، فوضع الشورى فرضا بين عبادتين. وأمر بالجهاد من بعدها،فلا جهاد يرجى ممن لا رأي له في أمته. وإنما يتناصر المتكافئون فيما يدافعون عنه: قال سبحانه: {والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون} ثم حثهم على الدفاع عن أنفسهم فقال: {والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون. وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين. ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل...}.

وفي الوحي المكي كذلك أكد انتصار المسلمين {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد} غافر ٥١.

ثم نزل في المدينة الإذن الصريح بالقتال والوعد بالنصر معا بقوله تعالى في سورة الحج ٣٩ – ٤٠:

{أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز}.

فكل نصر ظفر به رسول الله موعود به ومؤكد له وإن كان عليه أن يجاهد ليظفر به.

اختص الفصل الأول من الباب الحالي بغزواته حتى صلح الحديبية (الفتح المبين) واختص الثاني بغزواته حتى جاء نصر الله والفتح يوم فتحت مكة وجعلها رسول الله "مدينة مؤمنة" ثم غزا تبوك.

وفي الفصلين معجزات وردت تترى ليرى العالمون رأي عين أن الله يصنع النصر كما يشاء بصدق الجهاد والإقبال على الاستشهاد. ورسول الله يقدم قومه فيهما حيث يقول: "والذي نفسي بيده لوددت أن أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل" وهو المثل الأعلى لهم في الحرب والسلم، وفي العفو والصفح، فلما ظفر بمن كادوا له أو حاولوا قتله، عفا وأصلح وقال: (اذهبوا فأنتم الطلقاء).

أما الشهداء من جنده فحسبهم قول الله فيهم: {ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون}.

obeikandl.com

الفصل الأول

الفتح المبين

{إنا فتحنا لك فتحا مبينا. ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما. وينصرك الله نصرا عزيزا}.

سورة الفتح ١

حملت السماء رسولها الخاتم ما لم تحمله بشرا غيره. واقتضى الإذن بالقتال للدفاع المزيد من العطاء من جند الدعوة من صحبه وتابعيهم بإحسان وخلدت السماء نصيب الذين عملوا معه إذ ختمت سورة الفتح بقوله تعالى: {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم} الفتح ٢٩. ومعية رسول الله درجة عند الله والناس.

ولم يخل عام من الأعوام العشرة أو بعض العام في المدينة من عمل عالمي ضخم يتعاظم بتعاظم الانتصارات العسكرية أو الفكرية وتكاثر الحاجات التي تجد للأمة. وهو عليه الصلاة والسلام في ليله بين يدي الله حتى يرى وقد ورمت قدماه، وإذا نام فقلبه لا ينام. وهو في نهاره مشرع أو قاض أو إمام أو معلم أو قائد جيش أو "مرسل" أو "مستقبل" للسرايا تجوس خلال جزيرة العرب، فتضاعفت أعباؤه كالمضاعفات الهندسية التي تجعل العشرة الواحدة عشرة آلاف في عمليتين! لكن الوحي يؤيده والملائكة وجند السماء تحارب معه.

بهذا غزا سبعا وعشرين، حارب العدو في تسع منها أعظم الحرب كمقاتل شديد المنة، أو قائد صاحب خطة تنفذ على عينه، أو إمام فيه الأسوة الحسنة، فالعمل البشري الذي وسعته حروبه ليس له ضريب. والعمل البشري مقياس سموه الحكمة أو الرحمة أو الشجاعة.وكانت عنده مجتمعة.

وبلغ عدد سراياه سبعا وأربعين، أبلغها بعض ستين وبعض خمسا وستين. وقاد جيوشه بنفسه وبدأ قيادة السرايا بأهله وبالمهاجرين ليكونوا قدوة وليظهر الصبر والثبات منه ومنهم عند الصدمة الأولى.

كانت حروبه خاطفة لكن أداءها أداء المكيث الذي لا يستأنيه ريث أو تستهويه عجلة، وكان حريصا على الإسراع بالعودة إلى المدينة كلما خرج لغزو أو حج أو عمرة. فجيوشه ذاهبة أو آتية تفاجئ العدو ليسلم أو يستسلم فيدخر الدم.

يعلم القادة والجند قواعد الرحمة بالعدو لتطبقها سراياه. وهم إذ يرجعون يؤدون إليه الحساب عما وصاهم به: لا يهاجمون إلا إذا لم يسمعوا أذانا للصلاة مخافة أن يكون فيمن يهاجمونهم مسلمون، ويدعون للإسلام قبل أن يلتحموا فلا يحاربون إلا المشركين، ولا يغدرون ولا يمثلون ولا يغلون (يخفون لأنفسهم الغنائم) وهو يستحي أنفس العدو ما استطاع لأنه عليم – كما وعده الله – أن الإسلام منتصر، وأن العدو سيهتدي إليه.

ولسوف نرى العرب يعتنقون دينه فلا يكون في جزيرتهم دينان. وهي تعدل مساحة قارة تتوسط كرة الأرض ستكون منطلقا للإسلام إلى العالم.

وعندما تجب الحرب للدفاع تصبح فرض عين. والحرب الدفاعية إجماعية والله تعالى يقول في سورة التوبة ٤١ {انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله}.

وفي الحرب الإجماعية يجاهد كل قادر بما وسعه.

وابتداء الجهاد بالمال طبيعي فمنه عدة الحرب ووسيلة النقل، والمال أعم ما تقدر الجماعة على تقديمه، ولدى كل امرئ منه ما يقدمه من مقتنيات أو طاقات. وإذا كان الجود بالنفس أقصى غاية الجود فجنود الإسلام يتسابقون إلى الشهادة، رجالا ونساء، لأن شهداءهم أحياء عند ربهم يرزقون.

وسنرى بعد سنين حبيب بن مسلمة الفهري يبيت الموريان بأرمينية – فقالت له امرأته: أين موعدك؟ قال: سرادق الموريان أو الجنة.. ثم بيتهم وقتل من لقيه من حشدهم، حتى أتى السرادق فوجد امرأته قد سبقته إليه! وإنما علمتها ذلك مشاركات الصحابيات في الغزوات.

وأضاف رسول الله إلى ظاهر لفظ الجهاد تفصيلات تفسره فقال "جاهدوا بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم" وبهذا صير "الإعلام" جهاز حرب.

وقال: (إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه والرامي به ومنبله) فصير الصناعات الحربية أدوات جهاد.

وقال: (من لم يغز ولم يجهز غازيا أو يخلف غازيا في أهله بخير أصابه الله بقاعة قبل يوم القيامة) فتوعد القعدة، وهز وجدان الغافل، وأصاب المتسلب بقارعة، وفتح الأبواب لكل قادر كي يدلي في سبيل الله بدلوه.

وتجارى الصحابة في المضمار كله فجلى أبو بكر وصلى[٦٤] عمر، وتلاحق أصحاب الجنة: عثمان وعبد الرحمن وطلحة والباقون وإن كان الثلاثة أكثر في العطاء لأنهم كانوا أغنياء، والأخيران من أكثر المحاربين جراحات يوم أحد ففيه جرح عبد الرحمن أكثر من عشرين جراحة وهتم وعرج، وجرح طلحة نيفا وسبعين جراحة منها تسع في صدره.

ومع ذلك صحب عبد الرحمن الرسول إلى حمراء الأسد يجر أجزاءه! وسار طلحة إليها وقد شلت يده، لم تثقله جراحات صدره ولكن أهمته جراح رسول الله فظفر من رسول الله بالبشرى أو النبوءة التي سيحققها الله تعالى لهم وللمسلمين. قال له ﷺ: (أما إنهم يا طلحة لن ينالوا منا مثلها حتى يفتح الله علينا مكة) وصدق رسول الله.

وجهز عثمان جيش العسرة (تبوك) بتسع مائة وخمسين بعيرا أكملها ألفا بخمسين فرسا وقيل تسع مائة بعير ومائة فرس، واشترى بئر رومة للمسلمين بخمسين ألفا، وتصدق عبد الرحمن بنصف ماله أربعة آلاف دينار ثم بأربعين ألفا بعد موت النبي وحمل على خمسمائة راحلة في سبيل الله. ولما وردت قافلة بتجارته من الشام حملها إلى رسول الله. أما الزبير فقد صار له بعد موت النبي من الثراء ما جعله يتصدق بخراج ألف مملوك وباع دارا له بست مائة ألف وقال: هي لله.

وكان علي بطل معارك الرسول غير منازع لا يصل إلى يده مال إلا وزعه مقتديا برسول الله.

وفي المدينة نزل قوله تعالى: {وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلوكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين..} لتقتصر الحرب على من يحاربون المسلمين، وشرع الله البر بغير المحاربين، وأوجب العدل فيهم بقوله سبحانه: {لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم}.

ولما أمعن اليهود في نقض العهود بتألبيهم المشركين نزل قوله تعالى في سورة الأنفال ٥٨: {وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء} وطبق المسلمون الحكم في كل من نوى خيانة أو غدرا فأمسوا لا يحاربون خائنا لعهد إلا بعد إنذاره. فالحرب الإسلامية دفاعية وإنسانية معا.

---

(٦٤) المصلي يتلو السابق من الخيل والمجلي هو الأول .

* * *

انقضت السنة الأولى بالمدينة في إقامة الدولة وإعداد الأمة ولما أذن الله بالقتال تبادر إليه النبي وأهله والمهاجرون. ففي صفر سنة اثنتين بدأ رسول الله بغزوة "ودان" ويقال لها "الأبواء" فلم يلق العدو.

ثم بعث سرية بقيادة عمه حمزة إلى ناحية العيص على شاطئ البحر وأخرى بقيادة ابن عمه عبيدة بن الحارث. والسريتان تتألفان من المهاجرين. فلقى حمزة ثلاث مائة من المشركين يقودهم أبو جهل وتوادع الفريقان. ولقى عبيدة جمعا من المشركين يقوده عكرمة بن أبي جهل ولم يقع قتال وإنما فر إلى جيش عبيدة من جيش عكرمة اثنان من المسلمين السابقين هما المقداد بن عمرو وعتبة بن غزوان، وفي هذه السرية رمى سعد بن أبي وقاص أول سهم في سبيل الله مثلما رمى بمكة أول حجر. وتلت السريتين ثالثة يقودها سعد ويحمل لواءها المقداد.

ثم خرج رسول الله بالمهاجرين في ربيع الآخر حتى بلغ "بواط" وخرج في الشهر ذاته إلى العشيرة على طريق المدينة ليبقى أياما من جمادى الأولى في مائة وخمسين من المهاجرين يظنون أنهم ملاقون عيرا لقريش فلم يلقوا فرجعوا. وأغار كرز الفهري على سرح المدينة (إبلها وغنمها) فخرج إليه رسول الله حتى بلغ واديا يقال له سفوان بناحية "بدر" فلم يلقه ولذلك تسمى هذه الخرجة "بدرا الأولى" – وبعث سعدا في آثاره ففاته.

وكانت عين القائد دائما على مكة فبعث سرية عليها ابن عمته عبد الله بن جحش في رجب إلى "نخلة" وهي موقع على بعد ليلة من مكة لتتربص وتتعرف أخبار قريش، وأسرت السرية اثنين وقتلت ثالثا – وفدت قريش الأسيرين حتى إذا كان الشهر السادس عشر أو السابع عشر من الهجرة نزل القرآن بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة شطر البيت الحرام فاتجهت قلوب المسلمين وعيونهم تلقاءه.

بدر الكبرى

في رمضان من السنة الثانية علم رسول الله أن عيرا لقريش راجعة من الشام بأموال كثيرة عليها أبو سفيان وعمرو بن العاص فندب المسلمين لتلك العير، ولم يحتفل في الحشد إذ لم يكن يتوقع حربا بل قال: من كان ظهره (بعير) حاضرا فليركب معنا، وكان قد بعث طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد من أيام يتحسسان أخبار هذه القافلة.

وعلم أبو سفيان بمحاولة المسلمين فاستغاث بمكة وبادر بإرسال العير قبله بما تحمل.

ولما سلمت العير سار الهوينا، وبعث إلى قريش لتبقى، فحلف أبو جهل أن لا يرجعوا حتى يردوا "بدرا" ويقيموا بها ثلاثا لتهابهم العرب، فهي سوق يؤمها العرب كل عام بينها وبين المدينة ثمانية برد وميلان، فرجع بنو زهرة (أخوال النبي) وبنو عدي (قوم عمر) من بين جيش المشركين إلى مكة.

وخرج المسلمون لثمان خلون من رمضان، يزيدون قليلا عن ثلاث مئات ربعهم من المهاجرين، غير مسلحين، ليس معهم إلا ستة أدرع وسيوف ثمانية وفارسان.

أما قريش فجاءت في تسعمائة وخمسين مقاتل مسلحين، على سبعمائة بعير، واستشار رسول الله صحبه. فمثل المهاجرين المقداد بكلمته الخالدة: امض لما أمرك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا. ولكن اذهب إنا معكما مقاتلون.

ومع ذلك تمادى في المشورة ليتكلم الأنصار. قال سعد بن معاذ: يا رسول الله لو استعرضت بنا البحر لخضناه معك، فسر بنا يا رسول الله على بركة الله حيث شئت. فسر وقال: (سيروا وأبشروا فإن الله عز وجل قد وعدني إحدى الطائفتين (العير أو الرجال) فوالله لكأني أنظر إلى مصارع القوم).

وسبق بجيشه إلى ماء بدر ومنع قريشا منها سيل عظيم. ولما أمسى بعث عليا والزبير وسعد بن أبي وقاص إلى بدر يتلمسون الأخبار. واستخلص من عدد ما يذبحه العدو في اليوم لطعامه عدد جيشه.

قال له الحباب بن المنذر: يا رسول الله أهذا منزل أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب المكيدة؟ قال ﷺ (بل هو الرأي والحرب والمكيدة) قال: فانهض بنا يا رسول الله حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ونغور ما وراءه من القلب (الآبار) فنشرب ولا يشربون. فاستحسن ذلك وفعله.

وقال سعد بن معاذ: يا نبي الله ألا نبني لك عريشا تكون فيه ونعد عنده ركائبك ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله تعالى وظهرنا على عدونا كان ذلكما أحببنا وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا فقد تخلف عنك أقوام، ما نحن لك أشد حبا منهم ولا أطوع لكمنهم رغبة في الجهاد ونية، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك. إنما ظنوا أنها العير. فقال عليه السلام: (أو يقضي الله خيرا من ذلك).

وبنى العريش على تل مشرف على موقع المعركة.

وأخذ يعدل صفوف الجيش ويشير بقضيب في يده مس سواد بن غزية فقال: أوجعتني. فرد رسول الله القضيب إليه وقال: (استقد يا سواد).

ومشى رسول الله على مواضع يعرض منها على أصحابه مصارع رءوس الكفار مصرعا مصرعا ويقول: هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان.

وخطب جيشه فقال:

"لا تحملوا حتى آمركم. وإن اكتنفكم القوم فارموهم بالنبل ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك. اللهم فنصرك الذي وعدتني. اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض".

وبدأت الحرب في صبيحة ١٧ من رمضان الموافق ١٦ من مارس سنة ٦٢٤ بعد أربعة عشر عاما كاملة من نزول القرآن. وفي مثل هذا التاريخ من رمضان كان الإسراء بمكة. فخرج عتبة بن ربيعة (بن عبد شمس) وأخوه شيبة وابنه الوليد يطلبون المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار فصاح المشركون أخرج لنا أكفاءنا فأخرج إليهم من بني عبد المطلب – عليا وحمزة وعبيد بن الحارث بن عبد المطلب، فقتل عتبة وشيبة والوليد – وسلم علي وحمزة وعبيدة، لولا أن جرحت قدم عبيدة.

ودارت رحى الحرب وزعماء الأنصار على باب العريش يحمونه ورسول الله يناجي ربه ولا يتوقف "اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد".

قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله إني أريد أن أشير عليك: إن الله تبارك وتعالى أجل وأعظم من أن ينشد وعده قال: "يا بن رواحة لأنشدن الله وعده إن الله لا يخلف الميعاد".

وقال أبو بكر: يا رسول الله حسبك فسينجز الله وعده.

قال ﷺ: "سيهزم الجمع ويولون الدبر".

وعلي يقول: لما كان يوم بدر وحضر البأس اتقينا برسول الله ﷺ وكان من أشد الناس بأسا يومئذ وما كان أحد أقرب إلى المشركين منه.

وسمع عمير بن الحمام رسول الله يحث على القتال ويشوق إلى الجنة وفي يد عمير تمرات يأكلهن فقال: أما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء!! فرمى بالتمرات وقاتل حتى استشهد.. ونصر الله المسلمين.

وأمر ﷺ فضرب عنق النضر بن الحارث وكان من أشد المستهزئين بالرسالة والرسول، وعقبة بن معيط الذي حاول خنقه بمكة ورمى الفرث عليه وهو يصلي بالمسجد وآذاه وهو جاره فقتله عاصم بن ثابت صبرا.

وصدق وعيد رسول الله له: "إن رأيتك خارج مكة ضربت عنقك صبرا".

وكان في القتلى من آذوا النبي وأشار إلى مواضع مصارعهم، منهم عتبة بن أبي ربيعة وأخوه وابنه. وعتبة أبو هند امرأة أبي سفيان، وأبو البختري بن هشام وأمية بن خلف وابنه. وكان بلال مع عمار فيمن شاركوا في قتله. وسأل النبي عن أبي جهل فجئ برأسه من بين القتلى.

فداء الأسرى:

أما الأسرى فقال عنهم لصحبه: (استوصوا بالأسارى خيرا).

واستشار فيهم وأخذ برأي أبي بكر فأطلقوا بعد أن افتدوا أنفسهم وكان من الفداء أن يعلم الأسير عشرة مسلمين القراءة والكتابة. وكان أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون.

وكان بين الأسرى عمرو بن أبي سفيان ومن القتلى ابن آخر هو حنظلة ومن الأسرى سهيل بن عمرو وهو صاحب لسن وبلاغة ممن آذوا رسول الله بمكة، فطلب عمر إلى النبي أن يتركه ليقطع لسانه أو ليقتله، فقال عليه السلام: (لا أمثل فيمثل الله بي وإن كنت نبيا وعسى أن يقوم مقاما لا تذمه).

ولسوف يقوم أكثر من مقام يذكر له.

وكان فيهم وهب بن عمير الجمحي، جاء أبوه ليفديه، وهو متآمر، وأنبأه النبي بمؤامرته فأسلم كما سبق البيان.

ومن الأسرى أبو عزيز بن عمير العبدري أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه. مر به مصعب فقال لمن أسره: شد يدك به فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه. فقال أبو عزيز يا أخي هذه وصاتك بي؟

قال مصعب: هذا أخي دونك. وقال أبو عزيز فيما بعد إذ أسلم: كانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز – وكان الخبز أعز من التمر – وأكلوا هم التمر لوصية رسول الله بي. ما تقع في يد واحد منهم كسرة خبز إلا نفحني بها فأستحي، فأردها، فيردها علي ما يمسها.

وكان من الأسرى العباس عم النبي، قال للنبي: لقد استكرهنا على الخروج. قال عليه الصلاة والسلام: لقد كنت علينا في الظاهر. افد نفسك وابن أخيك. ففداهما وحليفا له.

قال العباس: لقد تركتني أفقر قريش.

قال عليه الصلاة والسلام: (كيف وقد تركت لأم الفضل أموالا وقلت لها: إن مت فقد تركتك غنية).

قال العباس: والله ما اطلع على ذلك أحد.

وفي الأسرى نوفل بن الحارث بن عبد المطلب فقال له النبي☹افد نفسك برماحك التي بجدة).

قال: والله ما علم أحد أن لي بجدة رماحا غيري. أشهد أنك رسول الله. وفدى نفسه بها وكانت ألف رمح.

وفيهم أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله وأخوه عمرو بن الربيع فبعثت زينب في فدائهما مالا فيه قلادة أدخلتها بها أم المؤمنين خديجة حين بنى بزينب أبو العاص، فلما رأى النبي القلادة رق لها رقة شديدة، وقال (إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا).

قالوا: نعم يا رسول الله.

وانطلق أبو العاص ووفى بوعده لرسول الله، فأرسل زينب إلى المدينة.

وكان فداء الأسير من أربع مائة درهم إلى أربعة آلاف كل على قدر حاله. ولم يستشهد في المعركة من المسلمين إلا ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار وقتل من المشركين سبعون وأسر سبعون وفر الباقون.

وبعد بدر أسلم عبد الله بن أبي بن سلول زعيم الخزرج كما أسلم عدد من الأسرى وكثير من المشركين وبعض اليهود وقالوا: تيقنا أنه النبي الذي ورد في التوراة.

ومن آثار الموقعة مات أبو لهب في حسرته بمرض يسمى العدسة.

من دلالات بدرك:

هكذا تبرز موقعة بدر الكبرى على أنها المعركة العظمى في تاريخ الإسلام لما حوته من دلالات نقف عند بعض منها. فلا بد من التوقف عند حد أو عدد.

أولا: أن المسلمين إذا كانوا اليوم يزاحمون أصحاب الديانات الأخرى بمنكب ضخم، أو قامت لهم عشرات الدول التي خطت بالعالم أعظم الخطى في مضمار التقدم، فهذه المعركة هي المعركة الأولى في تاريخهم والحاسمة في تثبيت دولتهم، وإلى بطولات الرجال فيها تطلع كل دولهم ومجتمعاتهم في حروبهم وقد طالما تيمنوا بها ليقتدوا ويهتدوا وينتصروا.

ثانيا: أن الدولة الإسلامية القائمة على ركني توحيد الله والإيمان به وبرسوله تمثلت قوتها في "وحدة" المهاجرين والأنصار ولياذ ولي الأمر بالله والحرب دائرة، وما يتبع ذلك من فضائل ترد إليها عظائم هذه المعركة.

ودولة الإسلام لا تبقى ولا ترقى إلا على الأسس التي قامت عليها، وكهيئتها كل مجتمع مسلم.

ثالثا: أن النصر إذا كان من عند الله وتأييده بملائكته فلا بد له من تضحيات الرجال وفي طليعتهم ثبات القائد في جنده. وأن جيوش المسلمين تنتصر بعقيدتها، لا بعددها ولا بعدتها.

رابعا: وترى رأي العين أمثالا على الرحمة بالأسرى، والعدالة المثلى في إعطاء النبي القود من نفسه والمساواة بين صهره أو عمه وبين غيرهما، ومنها يتعلم الفقهاء ورجال القضاء أن يأخذوا بما يظهر لهم لا بما يغيب في الباطن.

خامسا: وترى الشورى من البداية حتى النهاية كسماع كلمات المقداد ثم سعد وأخذه برأي الحباب في المنزل الذي ينزله وبرأي سعد في العريش الذي يتخذه ورأي أبي بكر في الأسرى.

سادسا: وإذا كان للعسكريين تقسيم المعارك بين التخطيط والتنفيذ (الاستراتيجية والتكتيك) وقد ألفت فيها المؤلفات الإسلامية فالتخطيط ظاهر في إصابة المشركين في شريان حياتهم وهو طريق تجاراتهم، وفي أنفس رجالهم، فهذا وعد السماء بإحدى الطائفتين، وقد زاده الله، والتنفيذ والإعداد توضحهما لنا الاستخبارات بطائفة بعد طائفة واختيار المواقع ثم إدارة المعركة.

سابعا: وما كان اختياره للمبارزة أقرب أهله إلا آية على صدق الجهاد والنصفة، ليرى الجيش أنه يقدم للنزال بعض نفسه، ويشهد المشركون في الصدمة الأولى مصارع ساداتهم على أيدي بني عبد المطلب: علي بن أبي طالب وحمزة أخي أبي طالب وعبيدة ابن الأخر الآخر. ولما رجع علي وحمزة يفعلان الأفاعيل في العدو حذا حذوهم المسلمون فتفوق كل مقاتل على نفسه.

ثامنا: أن خطبة الرسول التي سبقت المعركة كانت إعلاما للمحاربين بواجبات ثلاثة محددة واضحة وكان التزامها سبب النصر: فلا يحملون إلا بأمر القائد وإذا اكتنفهم المشركون رموهم بالنبل، ولا تسل السيوف إلا إذا تلقوهم رجلا لرجل.

وفيها من الاقتصاد في المجهود والاقتدار على إصابة العدو وهو بعيد، وادخار القوة للالتحام به، آيات.

كما كان في تنفيذها آية على أن طاعة الرسول تحدث النصر وهذا درس لكل مسلم.. ينساه المسلمون فينسيهم الله أنفسهم. وستثبت هذه الحقيقة من جهة أخرى إذ عصى بعض أمر الرسول في المعركة التالية لبدر فأصيب المسلمون بعصيانهم.

تاسعا: كان لتحقيق النبؤات التي نبئ بها الرسول عن هذه الغزوة أنوار تخلب الأبصار وسيرى المسلمون كل ما يعد به الرسول حقائق واقعة يشهد بتحقيقها الزمان كله.

فكيف يتمارى أحد في صدوق الرسول بعد:

١- إذ نزل القرآن في سورة الروم بمكة بأن الروم المغلوبين سوف يغلبون.

٢- وفي بضع سنين.

٣- ويومئذ يفرح المؤمنون، فنرى فرحهم ببدر هو الفرح الموعود مع تحقق نصر الروم.

٤- وفي الوقت ذاته أصيب الوليد بن المغيرة في أنفه فتحقق قوله تعالى: {سنسمه على الخرطوم}[٦٥].

---

(٦٥) نزلت سورة الروم بمكة وفي أولها {ألم. غلبت الروم. في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون. في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم}.

وفي مكة كذلك نزلت سورة القلم وفيها قوله تعالى:{سنسمه على الخرطوم} القلم ١٦.

٥- كما أعلن عليه الصلاة والسلام لعمه العباس ما أخفاه بمكة وما قرره بينه وبين زوجته.

٦- وأعلن لنوفل ما أخفاه من أسلحة بجدة.

٧- وكيف يتمارى أحد وقد أعلن للمحاربين قبل المعركة أن الله قد وعده إحدى الطائفتين العير أو الرجال، وهاهم الرجال صرعى، وها هي مواقع مصارعهم حيث بينها، مصرعا مصرعا.

عاشرا: وكان رفض التمثيل بسهيل بن عمرو رحمة ونبوءة معا فسيكون له موقف آخر لا يرضاه عمر إذ يحسبه في صالح المشركين ويظهر فيما بعد أنه أداة للفتح المبين، بل ستكون له مواقف – بعد أن أسلم – يشيد بها الأشهاد وفيهم عمر إذ يريد بعض قريش أن يرتد بعد موت الرسول فيمنعهم سهيل ثم يكون بطلا في الحروب التالية.

حادي عشر: أن مكانة هذه الغزوة في ظهور الإسلام على الدين كله جعلتها عند الله درجة وحفظت لمن خاضها صفة أنه (بدري) يغفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

قال عليه الصلاة والسلام لعمر إذ ألم حاطب بن أبي بلتعة – وهو (بدري) – بذنب إرسال كتاب إلى مكة يفشي سر التجهيز لفتحها حتى قال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنقه فقال ﷺ: (لعل الله اطلع على أهل بدر فقال افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم).

وحاطب هو السفير الناجح في حمل رسالة النبي للمقوقس وهو من قبل مدافع عن رسول الله يوم أحد حين رماه عتبة بن أبي وقاص بحجر كسر رباعيته فقتله حاطب.

فهذا صاحب لا تشفع له سفارته الموفقة ولا صنيعه يوم أحد ويشفع له أنه (بدري).

ثاني عشر: أنها كانت فاتحة البشريات للمسلمين ببرهان من لحم ودم يشهده العالم، على أن الله لا يخلف وعده وعهده، بنصر المسلمين المخلصين بما يشاء سبحانه، وتصاريف لا تدركها حسابات الأرضيين في حين يصنعها الربانيون أو تصنع على أعينهم، وتلتمسها مناشدة رسول الله ربه: (اللهم إني أنشدك وعدك وعهدك اللهم إن شئت لم تعبد).

والذي يتساءل بعد ذلك كيف حارب الملائكة مع المنتصرين مغرق في إقحام ذاته وتصوراته المحدودة في تفسير إرادة الله وقدرته التي لا تقف عند حدود.

وهذه الدلالات والانتصارات في بدر تؤكد لنا المفاتح التي أشرنا إليها من قبل في ختام الباب الأول.. وما هي إلا هذان الوعد والعهد من الله العزيز القادر، آمن الرسول بهما بكل ذرة من كيانه، فلم يخذله الله وهو في عين الردى، والردى يقظان يتوثب.

لقد كان على ثقة من ربه وبها وحدها كان ينتصر.

فبدر بهذه الدلالات – وكثير غيرها – جديرة بصفتها "الكبرى" وكل ما تلاها من انتصارات أو امتحانات إنما هي آثار لها وفيها مصداق مبادئها.

* * *

أقام عليه الصلاة والسلام سبعة أيام ثم خرج يريد بني سليم إذ بلغه أنهم جمعوا له فبلغ ماء يقال له: (قرقرة الكدر) وانصرف بعد ثلاث لتفرقهم.

بنو قينقاع:

ونقض بنو قينقاع من اليهود، ولهم حصون في داخل المدينة، عهدهم لرسول الله واعتدوا على إحدى المسلمات من غيظهم لانتصار بدر فقالوا له: لا يغرك من نفسك أن نلت من قومك فإنه لا علم لهم بالحرب والله لو حاربتنا لعلمت أن حربنا ليس كحربهم، وإنا لنحن الناس.

فخرج إليهم في النصف من شوال في السنة الثانية وحاصرهم خمس عشرة ليلة حتى نزلوا على حكمه. واستجاب لإلحاح حليفهم عبد الله بن أبي فحقن دماءهم وأوجب الجلاء عليهم فجلوا إلى أذرعات بالشام. ولم يكن لهم زرع ولا نخل بل كانوا تجارا وصاغة.

وكان أبو سفيان قد آلى أن يثأر ليوم بدر فأغار بعدها بشهرين بقوات له على زروع بالمدينة فقتل رجلا وسارع بالهرب مخافة أن يلحق به المسلمون فكان يطرح الزاد من فوق ظهور رواحله لتخف حمولتها فتسرع.

وخرج إليه الرسول بجنده فلم يحلقوا به وجدوا بقايا السويق (الدقيق) المطروح في الطريق فسميت غزوة السويق.

ورجع رسول الله ليبقى بالمدينة حتى نهاية السنة الثانية.

وفي السنة الثالثة بدأ رسول الله في ربيع الأول بغزوة ذي إمر إذ بلغه أن قوما من بني ثعلبة وبني محارب يتجمعون للغارة على المدينة فلما علموا بقدومه تفرقوا بالجبال في شرقي الجزيرة فأقام بنجد بعيدا من المدينة شهر صفر بتمامه يبحث عن العدو.

وفي هذه الغزوة تهدد رجل يدعى دعثور رسول الله بسيف الرسول إذ نزع ثوبه يجففه وقد أشرنا إليها من قبل.

ورجع رسول الله فأقام ربيعا الأول بالمدينة ثم خرج ليشتت جموع بني سليم للغارة على المدينة فلما بلغ بحران تفرقوا في كل وجه فأقام ربيعا آخر وجمادى الأولى من السنة الثالثة ثم رجع.

وفي أول جمادى الثانية جاءته استخباراته باتخاذ قريش طريق العراق إلى الشام لتفادي طرق المدينة فسيرت قافلة عظيمة بتجاراتها من ذهب وفضة وآنية وبضاعة أخرى عليها أبو سفيان وصفوان بن أمية بن خلف، فأنفذ إليها سرية عليها زيد بن حارثة في مائة راكب سيرد تفصيلها فيما بعد، فلقيت العير على ماء يدعى القردة فاستاقها إلى المدينة بحمولاتها ورجالها وهرب صفوان وأبو سفيان.

وبهذا أدركت قريش أنها أصبحت كالصيد اليائس بين ذراعين طويلتين للمسلمين ولم يبق لها معدى عن إخضاعهم أو تدمير مدينتهم لتشق لنفسها طريقا للحياة.

معركة أحد – حمراء الأسد

لم تعد صيحة الحرب عند قريش قاصرة على الدفاع عن الجاه والسلطان وعبادة الأصنام بل أصبحت "حياة مكة" ذاتها غرضا يدافع عنه. فأنفقت في الأهبة للحرب خمسين ألف دينار واستكثرت من الحلفاء واستعملت الشعراء، والكفاة من الرماة. وخرج جيشها وفيه الرجال ليحاربوا، والنساء ليشددن أزرهم بالدفوف والمعازف واصطحب الزعماء أزواجهم وخمورهم. وجاء جيش المشركين وتوقف قرابة جبل أحد في السبت الحادي عشر من شوال سنة ثلاث.

ولم يكن رسول الله بمعزل عن أخبارهم وهم قادمون فاستشار صحبه.

كانت خطته أن يتحصن بالمدينة فإن حاول العدو اقتحامها قاتله أهلها على أفواه أزقتها – وهم بها خبراء – وبهذا يصيبه الرجال والنساء والغلمان والأطفال والعجزة، في الطريق ومن أسقف الدور ومن الأمام ومن الخلف، وبكل شئ يؤذيه.

ودخول المدن ما يزال حتى اليوم من أخطر العمليات الحربية.

لكن الشباب أبى إلا الخروج للقاء العدو ليكرمهم الله بالشهادة وانضم إليهم آخرون. فلما رأى الإصرار لبس لامة الحرب (الدرع والسلاح) وخرج في ألف من أصحابه ورد كتيبة من اليهود جاءت تناصر عبد الله بن أبي وقال ﷺ: (لا تنتصروا بأهل الشرك على أهل الشرك).

وسار إلى جبل أحد فانصرف عبد الله بن أبي بقومه مغاضبا ومعه ثلث الجيش.

وجعل النبي ظهره إلى الجبل وتهيأ للقتال في سبعمائة رجل، وأقبلت قريش في ثلاثة آلاف، منهم مائتا فارس وفي المسلمين خمسون فارسا وخمسون راميا فكان الواحد يحارب أربعة. وسنشهد هذه النسبة في أكثر من موقعة. بل ستتعاظم فيحارب الواحد مائة! ويفتح الله عليهم!

ورتب رسول الله الرماة خلف الجيش على مرتفع ونهى عن البدء بالقتال حتى يأمر به، وأمر الرماة أن ينضحوا المشركين بالنبل لئلا يأتوا المسلمين من ورائهم وكان من خطبته فيهم:

(.. فإن الله تعالى مع من أطاعه وإن الشيطان مع من عصاه فافتتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد.. فإن الاختلاف والتنازع والتثبيط من أمر العجز والضعف مما لا يحبه الله تعالى ولا يعطي عليه النصر ولا الظفر. وإنه نفث في روعي الروح الأمين أنه لن تموت نفس حتى تستوفى أقصى رزقها لا ينقص منه شئ وإن أبطأ عنها. فاتقوا الله وأجملوا في طلب الرزق. ولا

يحملنكم استبطاؤه على أن تطلبوه بمعصية الله تعالى فإنه لا يقدر على ما عنده إلا بطاعته.. لا يقاتلن أحد حتى نأمره بالقتال. وانضحوا الخيل.. لا يأتون من ورائنا.. إن كانت لنا اثبتوا مكانكم لا نؤتين من قبلكم. الزموا مكانكم لا تبرحوا عنه وإذا رأيتمونا نهزمهم حتى نخل في عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم وإن رأيتمونا تتخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم. وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا وارشقوهم بالنبل فإن الخيل لا تقدم على النبل.. إنا لا نزال غالبين ما ثبتم مكانكم اللهم إني أشهدك عليهم).

وجعلت قريش على ميمنتها في الخيل خالد بن الوليد (بن المغيرة) وعلى ميسرتها عكرمة (بن أبي جهل) وعلى مشاتها صفوان بن أمية بن خلف[٦٦]. واشتبك الجيشان وأبلى علي وحمزة والزبير وسعد بن أبي وقاص وأبو دجانة وأنس بن النضر بلاء حسنا وانهزم المشركون. واستمرت الهزيمة فيهم وولول النسوة وولين هوارب ودخل المسلمون عسكر المشركين فانتهبوه.

* * *

عندئذ قال الرماة لأميرهم: لم يعد لقعودنا هنا معنى. قال أميرهم: ألم يأمركم الرسول ألا تبحروا؟ قالوا: قد انهزموا.. ثم نزلوا.

ورأى خالد وعكرمة ورجالهما مكانهم خاليا فحملوا على من بقى منهم وأتوا المسلمين من ورائهم. وضرب نساء المشركين بالدفوف وأثخن المشركون في المسلمين فصاروا يولولون.. أما رسول الله فثبت، وكان يردد: (اللهم بك أجول وبك أصول وفيك أقاتل حسبي الله ونعم الوكيل) وتناول المشركون محاولات قتله. وقتل مصعب بن عمير دونه، وجرح ﷺ في وجهه وكسرت سنه السفلى التي بين الثنية والناب (الرباعية) برمية حجر وهشمت خوذته على رأسه. وكان الذي تولى كبر ذلك ابن قمئة وعتبة بن أبي وقاص. وأكبت الحجارة على رسول الله حتى سقط في حفرة حفرها المشركون فخر على جنبه. وأخذ علي بيده.

---

(٦٦) وكانت هند بنت عتبة تشجع المشركين بأناشيد كيوم ذي قار [وبها بني عبد الدار. وبها حماة الأدبار}. والنسوة يرددن [نحن بنات طارق. نمشي على النمارق. الدر في المخانق. والمسك في المفارق. إن تقبلوا نعانق أو تدبروا نفارق. فراق غير وامق] وابن هشام في سيرته يكتفي بالأشطر الأخيرة. ولا عجب إذا كان بنو عبد الدار – وقد ناشدتهم زوج أبي سفيان – أكثر القبائل قتلى في ذلك اليوم!

واحتضنه طلحة حتى قام. وامتص دم الجرح مالك بن سنان. ونشبت حلقتان من حلق المغفر الذي يتقنع به في وجهه فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح عضا عليهما بثنيتيه فسقطتا فأصبح الهتم يزين وجهه.

وأعطى النبي الراية التي كان يحملها مصعب إلى علي بن أبي طالب وقتل دون رسول الله سبعة من الأنصار وترس أبو دجانة – والنبل يقع في ظهره – عن رسول الله وكان النبي يقول لسعد بن أبي وقاص وهو يرمي بالنبل (ارم فداك أبي وأمي) ويأمر من بيده السهام أن يقدمها لسعد.

وجرح عبد الرحمن بن عوف عشرين جراحة وصار أعرج، وجرح طلحة أكثر من سبعين، ومات أنس بن النضر عم أنس بن مالك وبه جراح أزيد من سبعين. وأذاع المشركون وفاة رسول الله ﷺ.

وممن جرحوا وهم يدافعون عنه (أم عمارة) نسيبة بنت كعب وشركتها في الحرب أختها وزوجها وابناها. وهي إحدى المرأتين اللتين بايعتا في العقبة وقد ضربت ابن قمئة بالسيف ضربات فوقاه درعاه. وسنراها وابنها من أبطال يوم اليمامة وفيه جرحت اثنى عشر جراحة.

ونبه كعب بن مالك – وبه سبعة عشر جارحة – على أن رسول الله حي فتوافى إليه المسلمون. فلما أسند في شعب من الجبل أدركه أبي بن خلف ليقتله ودفعه المسلمون فقال الرسول: (دعوه) وتناول الحرب من الحرث بن الصمة فطعن بها أبيا في عنقه ففر منهزما. وقال له المشركون: ما بك بأس! قال أبي: والله لو بزق علي لقتلني. أليس قال بل أنا أقتلك؟ وكان قد أوعد الرسول بالقتل بمكة فرد الرسول عليه: (بل أنا أقتلك) فمات من طعنته في أثناء عودته مع المشركين إلى مكة.

وصلى رسول الله بالمسلمين جالسا وصلوا وراءه، واستشهد أسد الله حمزة وكثر القتلى في المسلمين ولاكت هند زوجة أبي سفيان كبد حمزة ثأرا لأبيها وأخيها وعمها يوم بدر.

وضمدت فاطمة الزهراء جراح النبي ﷺ وكانت أم المؤمنين عائشة وأم سليم تحملان القرب فتفرغانها في أفواه الجرحى.

وقيل لرسول الله وجراحه تثعب دما: يا رسول الله لو دعوت عليهم؟ وأجاب: (لم أبعث لعانا ولكن بعثت داعيا ورحمة. اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون).

قال أنس عن عمه ما يعطيك أنموذجا للشهداء: لما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال عمي أنس بن النضر: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء – يعني المسلمين الذين تركوا مواقعهم – وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء – يعني المشركين – ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر. إني أجد ريحها دون أحد. قال سعد: فما استطعت يا رسول الله أصنع ما صنع..

قال أنس: فوجدنا به بضعا وسبعين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم.. فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه!

وكان أنس صغيرا يوم أحد لكن عمه وأمه أم سليم وزوج أمه (أبا طلحة) كانوا صناديد!

* * *

وانصرف المشركون عن المدينة إلى مكة بعد أن نادى أبو سفيان: بيننا وبينكم بدر الصفراء رأس الحول. وأجاب المسلمون: نعم ورجل رسول الله إلى المدينة حذر أن يكروا عليها.

فلما كان من الغد يوم الأحد صلى الصبح. ثم أمر فنودي في أصحابه بالخروج خلف العدو واللواء ما يزال معقودا لعلي. فالحرب مستمرة، ولهذا أمر ألا يخرج معه إلا من حضر المعركة بالأمس ليعلن استحقاقهم وحدهم للبطولات في نهايتها. فخرجوا مثقلين بجراحاتهم ومن أفدحها جراحات طلحة وعبد الرحمن التي أسلفنا.

وسار جيش الرسول يتعقب المشركين وهو يقول: (كيف تفلح أمة خضبت وجه نبيها اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون).

وبلغ الجيش حمراء الأسد على مبعدة ثمانية أميال من المدينة وأمر ﷺ بإيقاد خمس مائة نار ليذهب ضوء معسكره في كل وجه وليعلم العدو عظم عدد الجيش الذي يجد في آثاره. وهنالك وصل أخان جريحان من الأنصار يحمل كل منهما أخاه حينا ليحمله أخوه حينا فدعا لهما رسول الله بخير وجزاهما كلمات ستكشف الأيام أنها نبوءات قال "إن طالت بكما مدة كانت لكم مراكب من خيل وبغال وإبل. وليس ذلك بخير لكم".

وأقام الجيش ثلاثة أيام أجاءت فيها السماء معبدا الخزاعي إلى رسول الله في حمراء الأسد لمواساته في إصابات الأمس – وكانت خزاعة على شركها موضع سر المسلمين وهواها معهم –

وشهد معبد حمية المسلمين وإصرارهم فسار حتى لقى أبا سفيان بالروحاء يجمع ليكر على المدينة. فقال له أبو سفيان ماذا وراءك؟

قال معبد: والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل. جاء محمدا من كانوا تخلفوا عنه في اليوم السابق.

فثنى الخوف عزم أبي سفيان وتمادى في السير لمكة.

* * *

بهذا محا رجوع المشركين عن المدينة متخاذلين آثار يوم أحد إلى الأبد، وخلد القرآن الكريم أبطال حمراء الأسد.

وأضحى واضحا حساب الأرباح والخسائر: فلا يقال خسر المسلمون معركة ولم يخسروا الحرب، ولكن يقال: عصى بعض وافتتنوا بالغنائم فكانت خسارتهم الأولى خسارة أنفسهم، ولم تصب فتنتهم الظالمين خاصة. وفي ذينك الأمرين تحذير صريح من الله تعالى في القرآن وفي خطبة الرسول في بدء هذه المعركة. وكأنما كان يعرف ما سيقع. ولما خسر المسلمون ما كسبوه في بدء المعركة تعلموا بالدم المهراق درس الطاعة والقناعة.

من دروس أحد – حمراء الأسد:

ويأذن لنا المقام بالوقوف عند بعض المسلمات من دروس أحد – حمراء الأسد:

أولها: أن المدينة المنورة بمبانيها وكرائمها وأموالها وحدودها لم يمسسها سوء وبهذا خسر الغزاة أهداف المعركة. فبقيت تجارة المشركين مهددة وبقيت المدينة كالقلاع الحصينة التي لا تقهر. وهذا نصر أي نصر.

وثانيها: أن المشركين لم يكروا بعد المعركة بل كان همهم أن يبرحوا أرضها عجلين وجلين. ولما فكروا في الرجوع وسمعوا أن النبي في أثرهم استمروا يلتمسون السلامة بالقفول خائفين. وبقاء الخوف في قلوبهم هزيمة مستمرة في أنفسهم.. ليس شرا منها أي هزيمة.

وثالثها: أن بلوغ المسلمين حمراء الأسد في تتبع المشركين روع النفوس الوجلة المعجلة فأمعنت في السير. مما جعل هذا اليوم التالي للمعركة كالوجه التالي لورقة واحدة، أو الهجمة المضادة للمبادأة، بل الختام لبداية أظهرها على حقيقتها. فهذان يومان أفرغ الثاني منهما

أولهما من مضمونه السياسي والعسكري والاقتصادي، واقتصر أولهما على إحداث إصابات لم تمنع الجرحى من الكرة على المتراجعين.

ورابعها: أن أموال قريش التي نجت من الغزوات السابقة أو كنزتها على مر الزمان استهلكتها تكاليف يوم واحد.. فهو يوم خسائر لقريش من أي وجه بصرت به.

ولدينا مسلمات من القتال ذاته:

الأولى: أن الله يذكر المسلمين بأنهم أصابوا من المشركين يوم بدر مثلي ما أصاب المشركون منهم يوم أحد. بقوله تعالى: {أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شئ قدير}.

فالذين قتلوا من المسلمين نيف وسبعون ومن المشركين نيف وعشرون وهذه المصيبة كما وصفها القرآن لا تقدر بأكثر من قدر الله ولا من مقدارها في الحروب. فالمحارب يصاب كما يصيب. وهي للمشركين كسب ضئيل في مقابل النصر العظيم للإسلام بسلامة عاصمته (المدينة) من الاقتحام والسبي والتدمير مع بقاء دولتها خفاقة العلم.

ومن قتلى المشركين زعيم قتله النبي بيده (أبي بن خلف) وثلاثة قتلهم علي أو أربعة. واثنان قتلهما حمزة قبل أن يستشهد وواحد أو اثنان قتلهما سعد بن أبي وقاص وواحد قتله عبد الرحمن بن عوف.

وليس غريبا أن تدل مراجعة أسماء القتلى على أن نحو النصف من قتلى المشركين من بني عبد الدار فقد كانت هند بنت عتبة تستصرخهم لحماية الأدبار، وأربعة من بني مخزوم قوم الوليد بن المغيرة أبي خالد. فإنما هي دلائل انتصار المسلمين أول النهار وتركيزهم الهجوم على بني عبد الدار وبني مخزوم.

والثانية: أن قتل أبي بن خلف بالحربة هو الأذى الوحيد الذي مد به النبي يده على بشر في طول حياته الخاصة أو العامة في جهاده المديد الشديد، وفي هذا دلالة من عمل النبي على أن الحرب الإسلامية حرب دفاع عن النفس.

الثالثة: أن البطل الأعظم في المعركة هو شخص النبي ذاته بثباته وصموده مع جراحاته بين قواته، بل وهو يقتل بيده من جاء يقتله.

الرابعة: أن المسلمين انتصروا في أول النهار حتى دخلوا معسكر العدو وبدءوا الاستيلاء على غنائمهم وأن عصيان الرماة لأمر النبي بالثبات مهما حدث مع تشدديه في خطبته كان سببا للكرة من المنهزمين على المنتصرين.

وأن استعجال الرماة للرزق كان الدافع للعصيان الذي سبب كرة المشركين.

وأن طاعة الرسول تحدث النصر وأن المعصية خسران يحدث الخسران.

واستعجال الرزق بمعصية الله معصيتان ربما عجل عنهما الحساب لتتعاظم فيهما الموعظة.

الخامسة: أن انتفاع المسلمين كان عظيما بهذه الدروس فلم يعص جيش من جيوشهم أمر قائد لهم وكانت الطاعة الصادقة طريقهم للنصر فلم يصابوا بمثل ما أصيبوا مرة أخرى.

ولقد كان الرسول يقول: (أحد هذا جبل يحبنا ونحبه).

السادسة: ولما لم يؤسر واحد من المسلمين يوم أحد دلوا على أن المحارب المسلم يستشهد ولا يستسلم. والجهاد مستمر. ودرس أحد درس دائم.

السابعة: أن كسب المسلمين في هذه الغزوة كان عظيما بما كشفه الله لنبيه عن يقينه بما سيحدث في الغد حين قال لطلحة: (لن ينالوا منا مثلها حتى يفتح الله علينا مكة) وما هو إلا بلاغ بأمر السماء عن مستقبل الإسلام.

* * *

والمعاني الكبيرة للإنسانية قيم عالية يعلى بها الله قدر الجنس الإنساني كله. ومنها ما سجله القرآن من قرح أصاب المشركين ببدر والمسلمين في أحد فنهى المسلمين عن أن يهنوا ويحزنوا وهم الأعلون. وعلمهم أن الأيام دول يمحص الله فيها المؤمنين ويمحق الكافرين. وأمر رسوله بأن يعفو عن العاصين ويستغفر لهم ويشاورهم.

وإذا كانت معركة بدر آية صحة المعاني العالية التي علمها النبي ﷺ للبشر فمعركة أحد آية أخرى من الناحية الأخرى على صحتها، بالفساد في مخالفتها، ولذلك لم يعتبر القرآن أحدا هزيمة بل اعتبرها "إصابة" في مرحلة. وذكر المسلمين أنهم أصابوا المشركين مثليها يوم بدر بقتل سبعين وأسر سبعين وأن إصابتهم بإذنه ليتعلموا، قال سبحانه: {ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من

يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين} آل عمران ١٥٢

وخص الله تعالى أبطال حمراء الأسد بثنائه فقال: {الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم} آل عمران ١٧٢.

قال قائل لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أخبرني عن قصتكم يوم أحد قال: اقرأ بعد العشرين ومائة من آل عمران تجد قصتنا.

* * *

وأثنى الله تعالى على رسول الله ومن خرجوا معه لبدر الثالثة (أو الآخرة) أو بدر الموعد، إذ توعدهم أبو سفيان يوم أحد أن يلقاهم ببدر في العام القابل مما يدل على أنه لم ينل منهم ما أراده، وفي العام القابل خرج ثم لم يلبث أن رجع وأخلف وعده، مما يدل على استمرار الهزيمة في قلبه. ومر به نعيم بن مسعود الأشجعي فكلفه أن يثبط المسلمين وله في مقابل ذلك عشر أو عشرون من الإبل فثبط، فقال النبي (والله لأخرجن وإن لم يخرج معي أحد) فخرج ﷺ في ألف وخمسمائة وأمر على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبي وفي ذلك قوله تعالى: {الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل} آل عمران ١٧٣.

وكان استعمال أبي سفيان نعيما يومذاك سببا هيأه الله لنصر مقبل للمسلمين، ليقبل منه أبو سفيان وهو عنه راض، تخذيله أبا سفيان ذاته يوم الخندق.

في هذه السنة زوج رسول الله بنته أم كلثوم عثمان بن عفان بعد وفاة أختها رقية يوم بدر فاجتمع لعثمان زوجتا ولدى أبي لهب عتبة وعتيبة اللذين طلقاهما دون دخول بهما، ومن الزواج بهما يطلق على عثمان وصف (ذي النورين). وقد توفيت أم كلثوم سنة تسع.

بنو النضير:

في العام ذاته استعان الرسول ﷺ بيهود بني النضير في دفع دية قتيلين من بني عامر وكانوا حلفاء لبني النضير فزارهم مع أبي بكر وعمر وعلي ونفر من الأنصار. فقعدوا إلى جدار من جدرهم وائتمر اليهود بقتله بصخرة تلقى عليه من ظهر الدار. وأوحى الله إليه بأمرهم فقام ولم يشعر أحدا وترك صحبه وعبأ الرجال لقتالهم. فخرج إليهم في ربيع الأول سنة ٤ فتحصنوا في

دورهم وأغراهم نفاق عبد الله بن أبي بن سلول بالمقاومة فناصبوا النبي العداء حتى سألوه أن يكف عنهم ويجليهم فأجلاهم بما حملت الإبل من أموالهم عدا السلاح فخرجوا إلى خيبر على سبعمائة بعير، ومنها ذهب بعض إلى الشام وبقى في خيبر رؤوس بني النضير حيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع فاعتز بهم يهود خيبر.

وعند خروجهم أسلم منهم رجلان ونزلت فيهم سورة الحشر وفيها قوله تعالى: {هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر} الحشر ٢.

وأوضحت السورة وسوسة ابن أبي والمنافقين لهم وما كان من جلائهم وتخريبهم بيوتهم بأيديهم.

وقسم رسول الله أموال بني النضير في المهاجرين خاصة وأشرك معهم اثنين فقيرين من الأنصار. فرد المهاجرون للأنصار ما كانوا يشاطرونهم فيه من ثمار زروعهم وكانت القسمة بعد مشورة للأنصار إذ قال ﷺ: "ليس لإخوانكم من المهاجرين أموال وإن شئتم قسمت هذه الأموال بينكم جميعا وإن شئتم أمسكتم أموالكم بينكم وقسمت هذه بينهم خاصة" قالوا: بل أقسم هذه الأموال فيهم واقسم لهم من أموالنا ما شئت. وقال السعدان (ابن عبادة وابن معاذ): يا رسول الله ويكونون في دورنا كما كانوا. قال: (اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار).

ومنذئذ توقفت المواساة التي كانت فرضا على الأنصار للمهاجرين ببيعة العقبة.

ثم أرسل ﷺ سرية عليها أبو سلمة بن عبد الأسد، فأغارت على قطن (شرقي المدينة). وأرسل سرية عليها عبد الله بن أنيس فبلغت عرنة بوادي عرفة قريبا من مكة وقتلت زعيم القوم وعادت سالمة.

فلنلاحظ بلوغ سرايا رسول الله إلى جوار مكة وأنه لا ينام عن اليهود وأهل مكة ولا يدعهم ينامون، فيضربهم في وقت واحد وباستمرار.

ثم غزا رسول الله نجدا في جمادى من السنة الرابعة ومعه سبعمائة مقاتل يريد بني محارب وبني ثعلبة من غطفان وهي الغزوة المسماة ذات الرقاع. وفيها أتاه رجل بعثه قومه يدعى غورث بن الحارث المحاربي ليفتك به فاستأذنه في أن ينظر إلى سيفه ﷺ فلما أصلته لحقه بهت وتوافق قومه مع النبي ولم تقع حرب.

وكما أسلفنا لم يجئ أبو سفيان في رأس العام كما وعد يوم أحد.

وفي هذا العام توفيت أم المؤمنين زينب الملقبة أم المساكين كما توفي أبو سلمة ابن عمة رسول الله وأخوه من الرضاع وكان أول مهاجر إلى المدينة ومن أول المهاجرين إلى الحبشة وكان له بنون عدة وتزوج رسول الله زوجته أم سلمة حتى لا يضيعها وبنيها.

وفي ربيع الأول من سنة خمس غزا دومة الجندل في ألف رجل وهي كما قيل أولى غزوات الشام، على عشر مراحل من المدينة وعشرين من الكوفة وثمان من دمشق واثنى عشر من مصر. فهذا مفترق طرق تسير فيها جند الإسلام إلى الأمصار. وانصرف عليه الصلاة والسلام قبل أن يبلغ دومة الجندل إذ جاءته الأنباء أن الذين تجمعوا لغزو المدينة تشتتوا.

وفي عودته وادع زعيم فزارة عيينة بن حصن وكان يسميه (الأحمق المطاع) وكانت تتبعه ألف قناة.

غزوة الخندق أو الأحزاب وبني قريظة

١- الأحزاب: كانت الغزوة في شوال من السنة الخامسة، بتحريش من يهود بني النضير بعد الجلاء عن المدينة، فانبثوا في القبائل يجمعون كلمتها. فخرجت قريش يقودها أبو سفيان وخرجت قبائل غطفان (فزارة وبنو مرة وأشجع وبنو سليم وبنو أسد) لاقتحام المدينة هذه المرة. وواطأهم في مشارف المدينة يهود بني قريظة ولهم سبعمائة دارع فإذا جاءت الأحزاب وانضموا إليهم أحكموا الدائرة حول العاصمة.

واستشار رسول الله صحبه وعمل بمشورة سلمان الفارسي أن يحفروا حولها خندقا. وجد المسلمون في حفر الأرض الجبلية المحيطة بالمدينة والنبي يعمل فيهم كأحدهم، ولما تعذرت صخرة ضخمة دعوه لها وكان في الثامنة والخمسين فضربها ضربة أطارت منها الشرار فأضاء النهار وانقطع منها ثلثها فقال: (الله أكبر فتح قيصر. والله إني لأرى القصور الحمر) ثم ضربها أخرى فقطع الثلث الثاني ولمع الشرار فقال: (الله أكبر فتح كسرى والله إني لأرى القصور البيض) وضرب الثالثة فقطع الثلث الباقي وقال في أضوائه: (الله أكبر فتح اليمن والله إني لأرى باب صنعاء).

وجاءت الأحزاب وعدة جيوشها عشرة آلاف. واتصل بهم بنو قريظة في خفاء، فبعث رسول الله من يكشفون حقيقتهم وأمرهم إن كان غدر أن يلحنوا إليه لحنا يعرفه كيلا يفزع الناس. وأفصح اليهود عن عداوتهم فعاد المبعوثون يقولون له: (عضل والقارة) تذكيرا بغدر القبيلتين بالمسلمين في سريتين سيرد ذكرهما. فأرسل زيد بن حارثة على ثلاثمائة ومسلمة بن أسلم في مائتين لينازلوا قريظة إن هموا بقتال. وبهذا نقص جيش المسلمين إلى ألفين وخمسمائة يواجهون عشرة آلاف يضاف إليهم اليهود. وهي نسبة تعودها المسلمون: الواحد لأربعة أو أكثر.

وظاهر المنافقون اليهود، قال بعض: إن بيوتنا لعورة نخاف عليها من اليهود. وبعض قال: يعدنا بكنوز كسرى وقيصر ونحن الآن لا نأمن على بيوتنا وأنفسنا.

* * *

وجاع المحاربون في بعض أيام الخندق وقد استطالت شهرا فأكثر، والجيشان يترامیان بالنبال، حتى عصب رسول الله بطنه من الجوع ثلاثة أيام تباعا مثلما يجوع رجاله، ورق له جابر بن عبد الله فقصد إلى أمه يسألها ما تطعم رسول الله؟ قالت: عندي صاع من شعير وعناق (عنزة صغيرة) فدعا جابر رسول الله للطعام وهو يخاف أن يصطحب رسول الله أحدا. وقبل رسول الله ﷺ واصطحب الناس ليطعموا معه عشرة عشرة فيعودوا صالحين من شبع وري.

روى البخاري أنهم كانوا ألفا وقيل كانوا.. أو كانوا.. أو ثلاثمائة.

وبعثت امرأة بشير بن سعد بجفنة تمر إلى زوجها فأخذ منها رسول الله حفنة ونثرها على ثوب وجاء الناس الكثيرون فطعموا..

وأرسلت أم عامر الأشهلية بقصعة فيها طعام من دقيق وماء إلى رسول الله ﷺ وأم المؤمنين أم سلمة، فأكلت أم المؤمنين حاجتها. ثم نادى رسول الله إلى عشائه فجاء معه أهل الخندق فشبعوا معه.

وصنعت أم سليم أقراصا من شعير عصرت عليها سمنا ودعا الرسول بما شاء فأشبع الله منها ثمانين أو ثلاثين.

وصنعت أم عطية شاة أكل من سواد بطنها ومن قصعتين فيهما صاع من عجين نحو ثلاثين ومائة.

ووقائع النبوءات والزاد القليل أو الماء القليل أو النابع من أصابعه أو غرز رمحه أو ارتواء الجيش من قربتي أعرابية مما يكفي الجموع تتكرر متواترة في الصحاح من كتب السنة.وهي آيات لله يؤتي أمثالها أنبياءه ومنها إخباره بما يثبته العلم من بعده(٦٧).. وإذا كان الله سبحانه هو الذي يصنع الشبع والري للمحاربين ولرسول الله بالمشاركة في القليل عنده، ويخرج الماء أو يبعث به ويحدث حنين الجذع الذي كان يخطب عليه حين تركه ليخطب على منبر فإنه سبحانه الذي يرى رسول قصور الروم وكسرى وصنعاء، وكثيرا غيره نبأ به، فذلك وغيره مما سنراه في الفتوح ورأته الأجيال من بعده، أكثر دلالة من الشبع والري وأبعد في توقع الحدوث، لكنه حدث وشهده العالم. فالمشككون يرفضون واقعا تشهده الملايين وآلاف الملايين منذ فتح الله الممالك التي رأى فتحها عليه السلام أو التي فتحها صحبه بعد وفاته بأعوام.

والمشككون يرفضون ما نبأ به القرآن من نبوءات كلها قد تحققت وما لم نره رآه ورواه رواة بلغت رواياتهم مبلغ التواتر لفظيا كان أو معنويا يقطع بورودها وحدوثها، فكيف لا يسجد مسلم لله على تكريم نبيه صلوات الله وسلامه عليه بهذه الآيات؟

---

(٦٧) سألت أم سليم رسول الله:هل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟ فقالت أم المؤمنين أم سلمة يا رسول الله أو تحتلم المرأة؟ قال عليه الصلاة والسلام "ترت يمينك. فبم يشبهها وليدها" – وقد أصبح حقيقة علمية في العصر الحالي اشتراك بويضة المرأة في تكوين الجنين وتوريثه بعض خصائصها. وهذا علم خص الله به رسوله فأعلنه بمناسبة سؤال وجه إليه.

ومن آيات الله لرسوله ما صار سنة يمنح فيها الله ويمنع يوم استسقى الرسول للناس ففاضت السكك بالماء حتى لجئوا إليه ليدعو ربه ليمنعها، فدعا وامتنع الماء، وسيظل المسلمون يستسقون والله يمنح ويمنع.

على أن علامات النبوة في الآيات المقدمة لرسول الله من خالق الأرض والسموات ليست داخلة في إطار الإعجاز الذي يتحدى به الله ورسوله الكافرين، فإنما يتحديان بالقرآن الذي أنزله على رسوله: أن يأتي البلغاء أو المنكرون بمثله أو بعشر سور أو بسورة من مثله. ومن السور ما لا يزيد لفظها عن كلمات عشر، فيعجزون وما يزالون عاجزين. وكما يقول الفخر الرازي من المفسرين علماء الأصول: (ما من حرف ولا حركة في القرآن إلا وفيه فائدة ثم إن العقول البشرية تدرك بعضها ولا تدرك أكثرها وما أوتي البشر من العلم إلا قليلا).

وكما قدمنا بلغت اللغة العربية ذرتها في عصر نزوله لتقدر على حمل معانيه والتحدي بالمعجزات فيه، في وجازته الباهرة، فتحتوي كلمة أو كلمتان أو بضع كلمات أسرار خلق السموات والأرض أو تحوي آية واحدة أسرار خلق الإنسان.

* * *

بقيت الأحزاب شهرا تترامى والمسلمين بالنبال وتتحسس ثغرة تنفذ منها إليهم واستعمل رسول الله عناصر الطبيعة في حربه ومنها الزمن للتفريق بين جمعهم فدعا زعيمي غطفان (عيينة بن حصن وآخر) يراوضهما على أن يتركا الحرب لقاء ثلث ثمار المدينة فأجاباه بقبول فبعث إلى زعيمي المدينة سعد بن معاذ وسعد بن عبادة يستشيرهما.

قال السعدان: يا رسول الله هذا أمر تحبه نصنعه لك أو شئ أمرك الله به فنسمع له ونطيع أو أمر تصنعه لنا؟

قال: (بل أمر أصنعه لكم ووالله ما أصنعه إلا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة).

قال سعد بن معاذ: يا رسول الله لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان.. وما طعموا قط أن ينالوا منا تمرة إلا بشراء أو قرى (ضيافة) فحين أكرمنا الله بالإسلام وأعزنا بك نعطيهم أموالنا! والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

وسر رسول الله بذلك وقال: (أنتم وذاك) فخرجا وهما أمضى عزيمة في الحرب وأشد حبا للقائد المحب.. ولما جاءه عيينة وصاحبه قال لهما: انصرفا فليس لكم عندنا إلا السيف.

واقتحم أربعة من فوارس قريش الخندق في موقع موات للخيل فخرج إليهم علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي اقتحموها.

وأراد عمرو بن عبد ود أن يعلم مكانه وهو فارس العرب فنادى هل من مبار.

فبرز إليه علي.

قال عمرو: يا ابن أخي والله ما أحب أن أقتلك لما كان بيني وبين أبيك. فعرض علي عليه الإسلام فرفض.

قال علي: أنا والله أحب أن أقتلك.

فنزل عمرو عن فرسه فتجاولا. وثار النقع حتى لم يعد يراهما أحد، ثم انجلى فرئي علي يقطع رأسه ورئي الفرسان الثلاثة يولون الأدبار وفيهم عكرمة بن أبي جهل.

وطال الحصار على الأحزاب في ليال باردة يتراوض فيها الحلفاء من الأحزاب وفي هذه الأثناء أجاءت السماء رجلا يروح ويجئ بين مواقع الميدان حيث الجيوش الثلاثة، كالحلقة المحدقة المطبقة حول المدينة، فدار الرجل في داخلها دورات، في مهمة من المهام تستعمل سلاح المكان المتصل كاستعمال الزمان الذي استطال.

عمالة شرعية لنعيم بن مسعود الأشجعي:

والمؤلفون الأقدمون يخصون نعيم بن مسعود (الأشجعي) في وظائف الدولة الإسلامية "بعمالة شرعية" لرسول الله ﷺ هي (وظيفة المخذل) يوم الخندق.

وأشجع بطن من غطفان ولها في الجيش الذي يحاصر الخندق ألف فارس وزعيمها (الأحمق المطاع)، لكن السماء قذفت نور الإسلام في قلب نعيم فقصد إلى رسول الله يعلن إسلامه ويستأمره بما يشاء:

قال ﷺ: (إنما أنت رجل واحد من غطفان فلو خرجت فخذلت عنا كان أحب إلينا من بقائك فاخرج فإن الحرب خدعة) فخرج وصنع الله على يديه ما يعدل صنيع الجحفل اللجب.

كانت لنعيم منادمة مع بني قريظة في الجاهلية وكان – كما أسلفنا – قد عمل لأبي سفيان في العام السابق لتخذيل المسلمين حتى لا يذهبوا لبدر الثالثة. وأبو سفيان اليوم هو القائد الأعلى للآلاف التي تحاصر المدينة. وقول رسول الله إن الحرب خدعة لا يجد لدى نعيم تطبيقا أيسر

ولا أحدى من أن تتخدع الأحزاب بواحد من غطفان، وأبو سفيان بعميل له قد جربه، وبنو قريظة بنديم قديم يضرب على وتر العداء الذي تنبض به عروقهم. فاجتمعت في أنامل الرجل الواحد مقانل ثلاثة للعدو، لا تجمعها الصدفة، في ذلك اليوم العظيم في تاريخ الإسلام، حتى إذا أفلح وجهه في كل جهة أنزلت السماء ضربتها القاصمة الحاسمة.

قال نعيم: يا بني قريظة قد عرفتم ودي وإياكم وخاصة ما بيني وبينكم. قالوا: صدقت وما أنت عندنا بمتهم.

قال: إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم. البلد بلدكم، به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتوهم عليه. وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره فليسوا كأنتم. فإن أرادوا نهزة أصابوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم فلا طاقة لكم به إن خلا بكم.. فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا، من أشد ما يكونون، بأيديكم، ثقة لكم على أن يقاتلوا محمدا حتى تناجزوه.

قالوا: أشرت بالرأي.

ثم خرج إلى قريش فقال لأبي سفيان ومن معه: قد بلغني أمر رأيت علي حقا لكم أن أبلغكموه نصحا فاكتموا عني.

قالوا: نفعل.

قال: تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه إنا ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين، قريش وغطفان،رجالا من أشرافهم فنعطيكهم فنضرب أعناقهم ثم نكون معك على من تبقى منهم حتى تستأصلهم فأرسل إليهم نعم. فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون إليكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجلا واحدا.

ثم خرج إلى غطفان فقال: إنكم أصلي وعشيرتي وأحب الناس إلي ولا أراكم تتهمونني ثم قال لهم مثل ما قال لقريش.

وأرسل أبو سفيان ورئيس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان يقولون إنا لسنا بدار مقام.. فأعدوا للقتال حتى ناجز محمدا. فأجابوا إن اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون

بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدا فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب أن تنشروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلدتنا ولا طاقة لنا بذلك منه.

فلما رجعت الرسل بما قال بنو قريظة قالت قريش وغطفان: والله إن الذي حدثكم به نعيم بن مسعود لحق. وأرسلوا إلى بني قريظة إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحدا من رجالنا فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا.

فقالت بنو قريظة حين أتاهم الرسول بهذا: إن الذي ذكر نعيم بن مسعود لحق.فأرسلوا إلى قريش وغطفان إنا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا فأبوا عليهم. وحان الحين وحلت صعقات السماء بريح عاتية في ليال شاتية شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وآنيتهم وتقتلع أوتادهم.

وانتهى إلى رسول الله ﷺ ما اختلف من أمرهم فبعث حذيفة بن اليمان ليلا لينظر ما فعل القوم ثم يرجع. وروى حذيفة أن رسول الله قال: فمن رجل يقوم فينظر ما فعل القوم ثم يرجع، يشترط له رسول الله الرجعة، أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة؟

فما قام رجل من القوم، من شدة الخوف والجوع والبرد، فدعاني فلم يكن لي بد من القيام فقال: (اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يفعلون).

فذهبت فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل لهم ما تفعل، لا تقر لهم قدرا ولا نار ولا بناء. فقام أبو سفيان فقال: يا معشر القوم لينظر امرؤ من جليسه؟ فأخذت بيد الرجل الذي إلى جانبي فقلت: من أنت؟ فقال: أنا فلان بن فلان. (وفعل مثل ذلك عن جنبه الآخر).

ثم قال أبو سفيان: والله ما أصبحتم بدار مقام لقد أخلفتنا بنو قريظة وهلك الخف والحافر ولقينا من شدة الريح ما ترون فارتحلوا فإني مرتحل.

فرجعت إلى رسول الله وهو قائم يصلي فلما سلم أخبرته الخبر.

وسمعت غطفان بما همت به قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم.

ولما أصبح رسول الله انصرف إلى المدينة والمسلمون معه.

وأعلن بعد جلاء الأحزاب مستقبل قريش والأحزاب كله فقال: (الآن نغزوهم ولا يغزوننا – نحن نسير إليهم).

* * *

استأجر أبو سفيان نعيما في العام السابق دسيسا له على المسلمين فأخفق نعيم في قصده من تخذيل رسول الله ﷺ وأفلح فيما أراده الله سبحانه من أن يكون موضع الثقة لدى أبي سفيان ليهزمه الله على يده في العام التالي يوم الخندق. وأبو سفيان قائد أعلى لجيوش الأحزاب، وفيها أشجع وسائر قبائل غطفان فآثار نعيم على القائد العام وعلى قريظة مع النجاح في إخفاء إسلامه عن قومه وعن اليهود بل وعن المسلمين إلا رسول الله عليه السلام، أمور شتى لكنها متضافرة، تذكرنا بعمل معبد بن أبي معبد الخزاعي من عامين في أعقاب أحد حين لقى أبا سفيان بالروحاء فأخبره بقدوم الرسول ومعه مدد جديد في طلبهم فأخذ المسير بجيشه تلقاء مكة، وبهذا تم النصر للمسلمين في حمراء الأسد.

ولا يستطيع مفكر أن يمر بهذه العوامل فرادى أو مجتمعة في أخطر محاولتين لغزو المدينة دون أن يقف خاشعا أمام تضافر منسق لعناصر كل منها قاطع حاسم في إحداث النصر، وما هو إلا تقدير الله العزيز الحكيم جل شأنه. وليست المصادفة واحدة أو جماعة هي التي تحدث الانتصارات الحاسمة في التاريخ، واحدة تلو أخرى بتدفق عجيب للوقائع وترتيب دقيق للنتائج لتقوم دولة أراد الله قيامها إلى يوم الدين.

والذي يتساءل بعد ذلك كيف كان نصر الله للمسلمين بجنده وملائكته إنما يتجاوز قدره فيحسب قدرة الله بحسبانات قاصرة أو بكفر عنيد.

٢- استمرار المعركة مع بني قريظة:

ولقد جاءه ﷺ الوحي عند جلاء الأحزاب أن الملائكة لم تضع سلاحها بعد. فأمر فنودي: لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة.

واجتمع المسلمون في قريظة. فأعطى رسول الله رايته لعلي بن أبي طالب واكتفى عليه الصلاة والسلام بحصارهم عشرين ليلة حتى نزلوا على حكمه. وشفع الأنصار من الأوس لهم – فقد كانوا يوم بعاث حلفاءهم – وقبلت قريظة أن يحكم في أمرهم زعيم الأوس سعد بن معاذ.. فقضى فيهم بعد أيام أن يقتل الرجال وتسبى الذراري والنساء وفيهم من الرجال حملة السلاح سبعمائة دارع وكان تمام فتح قريظة في ذي الحجة من السنة الخامسة لتبقى المدينة المنورة، عاصمة الإسلام، في أمان أبدا.

آيات السماء المستمرة:

وفي الخندق وقريظة آيات لله في تأييد رسوله.

١- فبنو قريظة غدروا بالمسلمين بعد إذ عاهدوهم على الدفاع عن المدينة والغدر منهم شنشنة يعرفها كل مسلم.

٢- وأما المشركون فقد أساء قائدهم (اختبار النوايا) إذ كتم عن اليهود، كما كتموا عنه، فبادلهم غدرا بغدر ولم يحقق ولم يستشر.

٣- كما أساء تقدير مصرع عمرو بن عبد ود وأثره في عزيمة جيشه عند العواصف، بل ملئ فؤاده رعبا بموت عمرو فلم يتابع المقتحمين، وروعه انسحاب عكرمة.

٤- ثم زلزل الله كيانه إذ هدت الريح خيامه.

٥- وكان جيشه على تعبئة سيئة حتى ليخترقه حذيفة بفطانته، ولا عجب بعد ذلك أن كانت معركة الخندق هي المبادرة الأخيرة من قوم تعودوا الهزيمة.

وأما المسلمون فكانوا أكفاء للغزوة:

١- حفروا الخندق في الصخر في أيام وكان الرسول أولهم إذ يحفرون ويجوعون ويعلوه التراب ويؤذيه الجوع مع الجميع.

٢- وكان حفر الخندق فوق ما فيه من عبقرية التفكير والتنفيذ عبقري النتائج: أوقف المهاجمين وروع المقتحمين وجعل عمرا فارس العرب عبرة للعرب، فلم يجرؤ الجيش بعد اقتحام الثغرة أن يكررها حتى جاء عون السماء من أكثر من وجه للمسلمين.

٣- وعرف المسلمون المنافقين في خارجهم وداخلهم فراقبوهم ولم يرهبوهم وإن عشش النفاق في نواصيهم وأنزلوا ببني قريظة جزاء قدرته السماء.

وأما نبي الإسلام فقد خلد له التاريخ بين دلائل النبوة في هذه الغزوة آيات شهدها معه آلاف وسمعه عنه ورواها لآلاف عن الآلاف على سبيل التواتر.

الأولى: هذا الشرار الذي استطار بأنوار بصر فيها بفتح بلاد الروم وكانت الامبراطورية الرومانية قد انتصرت كما تنبأ القرآن. وتلاه البصر بكسرى والقصور البيض حيث منزلة الامبراطورية الفارسية هي الثانية. وأما البصر بباب صنعاء فجاء ثالثا بين أبواب الفتوح فهو أقرب الأبواب إلى العرب من ناحية المكان والإمكان. ثم هذان الشبع والري إذ جاع الناس في الحصار وأشبعهم الله ورواهم مع رسول الله.

الثانية: إذن الله لرسوله أن يعلن بعد انتهاء المعركة طريق الفتوح للمسلمين (الآن نغزوهم ولا يغزوننا. نحن نسير إليهم) ولسوف يصنع السير إليهم أعظم الأثر في التاريخ الذي يعيشه العالم.

الثالثة: أن ترسل السماء من صفوف المشركين من تحققت بصنيعه الخدعة التي فرقت بين المشركين واليهود وأدخلت الهزيمة على أنفس الأحزاب وزعيمها قبل أن تقتلع الأعاصير أوتادهم.

الرابعة: تضافر عمل العناصر السماوية مع ما يجري على الأرض في الحرب وسياستها فتهب الريح صرصرا عاتية في آخر الأيام كمسك الختام. فالسماء تطارد الشرك لينقمع بمكة وتمهد الطريق إليها لجيوش المسلمين.

الخامسة: أن الملائكة لم تضع سيوفها إلا بعد أن تم النصر. وسيوفها أنواع لا يحصيها إلا الله سبحانه، وبها أضافت السماء سلاحين لا يقهران هما نشوب المعركة مع قريظة وبعد جلاء الحلفاء، فانفرد بهم المسلمون في الزمان والمكان ودامت المعركة مع العدو الذي بقى رابضا يتربص النوازل بالمسلمين بعد جلاء أحلافه، وقد خاضها المسلمون،

والملائكة ظهير لهم، بسلاح السلام أي بمجرد الحصار وبقضاء قاض قبلت قريظة قضاءه.

أما عظائم الإمامة أو براعة القيادة أو سياسة الأمة أو وسائل النصر فقد تكافل في أدائها الأفراد والقواد والعناصر الطبيعية التي لا تقهر وقد سلف علينا أمثال في كل منها أمثلة:

الأول: الأخذ بالشورى بحفر الخندق، ورد الله المشركين لم ينالوا خيرا.وظفر سلمان بتسابق المهاجرين والأنصار إلى نسبته حتى قال النبي (سلمان منا أهل البيت).

الثاني: طلب الشورى التي حرمت عيينة بن حصن من ثمار المدينة وشحذت همم أصحاب الثمار للدفاع عن دينهم وعن مدينتهم وجعلت للسعدين قدم صدق في المعركة والأول حكم في قريظة والثاني يسهر على الرسول المعصوم ﷺ.

الثالث: أن القائد الأعلى ﷺ استعمل الزمن أعظم استعمال، وأوصى بالتخذيل، وشحذ عزائم الأنصار، وراقب جيش العدو من خارجه وداخله، وأدخل الزمان والمكان مع الريح في عناصر انتصاره.

الرابع: أن رسول الله ﷺ لم يأمر نعيما بخطة عمل، واكتفى منه بأن يخذل عنه فوجهته عناية الله وجهته المثلى.

وأبو سفيان غدر أصيب من صاحب سره، واليهود خدعت. ولهذين السببين المتراكبي العوامل والعناصر كانت إصابة اليهود من نديم قديم وإصابة أبي سفيان من دسيسه السابق، بل كان في الجلاء فضل من الله على المشركين ليبقوا فيجيئوا مسلمين بعد فتح مكة.

* * *

انقضى بعد بني قريظة النصف الأول من حياة رسول الله بالمدينة واستفتح النصف الثاني بالاتجاه بفكره وفعله صوب مكة وحلفائها.

فخرج من المدينة في ربيع الأول سنة ست قاصدا طريقها ليؤدب قبائل عضل والقارة وبني لحيان وكانت استقدمت بعثا من خيرة الأنصار ليعلمها الإسلام ثم أسلمتهم لبني لحيان من هذيل فقتلوا

منهم جماعة بين عسفان ومكة فيهم عاصم بن ثابت بن الأقلح[٦٨] وخبيب بن عدي. وكان رسول الله يلعن عضل والقارة وهو يحفر الخندق مما يشير إلى أنه يربط في ذهنه بين غارة قريش التي يستعد لها والمثلة التي صنعها عملاؤها بخبيب[٦٩] والخيانة التي قامت بها القبائل لحساب قريش،وأن عقابه حتم مقضي على هذه القبائل.

وسنقرأ حديث الغدرتين في الباب التالي.

وسمع بنو لحيان بخروجه إليهم فتفرقوا في الجبال فلما بلغ ﷺ حيث مقتل أصحابه في (بعث الرجيع) ترحم عليهم وأقام يوما أو يومين يبعث السرايا تبحث عن الهاربين في المغارات والمفاوز ثم قال ﷺ لصحبه: (لو أنا هبطنا عسفان لرأى أهل مكة أنا قد جئنا مكة).

وهبط حتى نزلوا عسفان (على مرحلتين شمالي مكة).

هكذا ظهر جند رسول الله وخيله قريبا من مكة وكما قال (جئنا مكة) لتسمع مكة وترى أخبار مقدمه ونيران جيشه. لقد قال عليه الصلاة والسلام لطلحة بن عبيد الله بعد أحد: (لن ينالوا منا مثلها حتى يفتح الله علينا مكة) فلم ينالوا.

وقال بعد غزوة الخندق: (الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم). وسيسير إليهم بجيش ينشد السلام.

---

(٦٨) جد عمر بن عبد العزيز لأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب وهي زوج عبد العزيز بن مروان أمير مصر وأفريقية وأبي أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز.

وعاصم بن ثابت من أهل بدر. وفيها قتل مشركين نذرت أمهما أن تشرب الخمر في جمجمته إذ قتل صبرا عقبة بن أبي معيط بأمر النبي فأراد المشركون رأسه ليقبضوا مائة ناقلة وعدت بها أم المشركين لكن الله حمى رأسه، بعد استشهاده فلم يعثروا عليها.

(٦٩) استسلم خبيب لمن أسروه بعهد نكثوا به وباعوه لقريش معزميله زيد بن الدثنة فاشتراه صفوان بن أمية بن خلف وأراد منه أن يقول كلمة في رسول الله لقاء إطلاق سراحه فاستعصم ليبقى مثلا رفيعا لكل مسلم، ولما هموا بقتله طلب أن ينظروه ليصلي ركعتين قبل أن يستشهد.

فهو أول من سن صلاة ركعتين قبل الاستشهاد وهو القائل في شعر خالد:

ولست أبالي حين أقتل مسلما على أي جنب كان في الله مصرعي

لقد رجع إلى المدينة ليبقى فيها ليالي ثم يخرج إلى ذي قرد على مبعدة يوم من المدينة ليسترد لقاحا له أخذها عيينة بن حصن في غارة له على المدينة قتل فيها حارس اللقاح وأخذ امرأته ولكنها استطاعت أن تنجو من آسريها على ناقة حلفت إن نجت لتنحرنها، فلما رجعت إلى المدينة ظهر أنها العضباء ناقة رسول الله فأخبرته بالنذر فقال ﷺ: (بئس ما جزيتها. لا وفاء لنذر في معصية ولا فيما لا يملك ابن آدم).

obeikandl.com

بني المصطلق أو المريسيع

وجاءت الأنباء أن الحارث بن أبي ضرار يجمع العرب وقومه بني المصطلق للحرب وكانوا أعوانا لقريش، في غزوة أحد. فخرج رسول الله إليهم في شعبان من السنة السادسة بجيش فيه ثلاثون فارسا وانتهى إلى ماء يسمى المريسيع، فلما علم العرب بقدوم رسول الله تفرقوا عن الحارث.

وترامى الجيشان بالنبل زمانا ثم حمل المسلمون عليهم فما أفلت منهم أحد وقتل عشرة وأسر سائرهم، وقتل من المسلمين رجل.

حدثت أم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها:

أتانا رسول الله ﷺ ونحن على "ماء المريسيع" فأسمع أبي يقول إن أمامنا ما لا قبل لنا به. فكنت أرى من الناس والسلاح والخيل ما لا أصف به من الكثرة. فلما أسلمت وتزوجت رسول الله ﷺ ورجعنا جعلت أنظر إلى المسلمين فليسوا كما كنت أرى. فعلمت أنه رعب من الله يلقيه في قلوب المشركين.

وكانت جويرية قد وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس وابن عم له فكاتبها على تسق أواق من الذهب فاستعانت رسول الله فيها فأعانها ثم أعتقها وتزوجها.

وقال الناس: أصهار رسول الله فأعتقوا سبيهم وكانوا مائة أهل بيت فأسلموا. قالت أم المؤمنين عائشة لا أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها.

وفي هذه الغزوة استأذنوا رسول الله في العزل عن النساء فقال: (ما عليكم ألا تفعلوا. ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا وهي كائنة).

واختلف مهاجر وأنصاري فدعا كل منهما قومه لينصروه وسمع رسول الله فقال: (ما بال دعوى الجاهلية. دعوها فإنها منتنة ولينصر الرجل أخاه ظالما أو مظلوما فإن كان ظالما فلينهه وإن كان مظلوما فلينصره).

وفي إبان هذا الخلاف قال عبد الله بن أبي لجماعة من المنافقين: والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل وكان في القوم زيد بن أرقم بلغ الحلم، فأبلغ رسول الله ﷺ وشاع القول في المعسكر. وقال رسول الله: (يا غلام لعلك غضبت عليه) قال: لا... قال: (لعله أخطأ

سمعك؟) قال: لا والله. قال: (لعله شبه عليك)؟ قال: لا والله. وجعل الرهط من الأنصار يلومونه فقال: (لو سمعت هذه المقالة من أبي لنقلتها إلى رسول الله) قال عمر بن الخطاب لرسول الله: مر فلانا فليأتك برأسه وأجاب ﷺ: (لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه).

ومشى ابن أبي إلى رسول الله فقال ﷺ: (إن كنت سلفت منك مقالة فتب). فجعل يحلف بالله ما قال.

وبلغ ابنه عبد الله مقال عمر فأتى رسول الله فقال: يا رسول الله إن كنت تريد أن تقتل أبي فيما بلغك عنه فمرني به. فوالله لأحملن إليك رأسه قبل أن تقوم من مجلسك هذا. والله لقد علمت الخزرج ما كان فيها رجل أبر بوالديه مني، وما أكل طعاما منذ كذا وكذا من الدهر ولا شرب شرابا إلا بيدي، وإني لأخشى يا رسول الله أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله فأدخل النار. وعفوك أفضل.

قال ﷺ: (يا عبد الله ما أردت قتله ولا أمرت به ولتحسنن له صحبته ما دام بين أظهرنا).

ويقول ابن هشام عن ابن أبي إنه (جعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه).

* * *

وسارع رسول الله بالجيش في العودة.

وضلت ناقة رسول الله فقال منافق: أفلا يخبره الله بمكانها! فأنكر عليه الحضور كلامه ونبذوا متاعه فهرب إلى مجلس رسول الله فقال ﷺ: (إن رجلا من المنافقين شمت أن ضلت ناقة رسول الله. وإنها في هذا الشعب مقابلكم). فذهبوا فأتوا بها. فرجع الرجل إلى القوم فوجدهم في مكانهم، فأخبرهم الخبر وقال: أشهد أنك رسول الله.ومع ذلك ظل ضعيف الإيمان حتى مات. وتكرر موقفه في تبوك.

وفي الطريق أخذ رسول الله من البرحاء ما كان يأخذه عند نزول الوحي، فلما سري عنه أخذ أذن زيد بن أرقم وقال: (وفت أذنك يا غلام وصدق الله حديثك).

فلقد نزلت سورة (المنافقون) تؤيده فيما أخبر رسول الله به.

وفهم منها أن أمر المنافقين متروك لرسول الله يقدره، مع تسجيلها جرم ابن أبي في قوله: (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل).

ولما وقفوا على أبواب المدينة، كان عليهم حسبما أدبهم رسول الله ألا يدخلوا على نسائهم ليلا، بل ينتظر الجيش حتى الصباح فيدخل، احتراما لخصوصيات نسائهم، لكن عبد الله بن رواحة تعجل فدخل بيته ليلا. فرأى زوجته نائمة. ورأى إنسانا طويلا في الدار فأيقظها ورفع سيفه وقال: من هذا؟

قالت: سمعت بقدومكم وهذه ماشطتي باتت عندي.

فلما أصبح رجع إلى الجيش فرآه رسول الله متغير الوجه فسأله فأخبره فكرر أمره ﷺ: (لا تطرقوا النساء ليلا).

وفيه الغزوة حدث حادث الإفك.

حديث الإفك

جمع البخاري من روايات عدة عن عائشة جملة حديث الإفك: كان ﷺ يقرع بين زوجاته لتصحبه إحداهن إذا عزم سفرا فخرج سهم عائشة في هذه الغزوة بعد أن أنزل الله آية الحجاب فكانت تحمل في هودجها. وفيما هم راجعون وقد دنوا من المدينة أذنوا ليلة بالرحيل فمشت حتى جاوزت الجيش لتقضي حاجتها. فلما رجعت أقبلت إلى رحلها فلمست صدرها فنجدت عقدها قد انقطع فرجعت تلتمسه.

واحتمل الرهط هودجها على بعيرها وهم يحسبونها فيه، وكانت خفيفة الوزن حديثة السن، فلما رجعت لم تجد أحدا فيممت منزلها الذي كانت فيه في انتظار أن يعودوا لطلبها وغلبها النوم. وكان صفوان بن المعطل السلمي[٧٠] من وراء الجيش، فأصبح عند منزلها فعرفها – وكان قد

---

(٧٠) صفوان بن المعطل السلمي شهد الخندق مع رسول الله عليه السلام سنة خمس وكان مع كرز بن جابر الفهري في طلب العرنيين الذين أغاروا على لقاح رسول الله، وكان يكون على ساقة جيش رسول الله وأثنى عليه رسول الله بقوله: (ما علمت عليه إلا خيرا) وكان شجاعا فاضلا. قتل شهيدا في غزوة أرمينية سنة ١٩ وكان قائد ميسرة عياض بن غنم لاسترجاع أنطاكية، وقيل سنة ٥٨ في خلافة معاوية في غزو الروم، وقد اندقت ساقه وما زل يطاعن حتى استشهد.

رآها قبل نزول آية الحجاب – فخمرت وجهها بجلبابها ما تكلما بكلمة، حتى أناخ راحلته فقامت فركبتها فقادها حتى بلغوا الجيش موغرين في نحر الظهيرة.

قالت: فهلك في من هلك وكان الذي تولى كبر الإفك عبد الله بن أبي بن سلول.

قال عروة: أخبرت أنه كان يشاع ويتحدث به عنده ويسمعه ويستوشيه[٧١] ولم يسم من أهل الإفك إلا حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش في ناس آخرين لا علم لهم بهم.

وقال عروة: كانت عائشة تكره أن يسب عندها حسان وتقول: إنه الذي قال:

فـإن أبـي ووالـده وعرضـي لعـرض محمـد مـنكم وقـاء[٧٢]

قالت عائشة: فقدمنا المدينة فاشتكيت شهرا ويريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي إنما يدخل علي رسول الله ﷺ فيقول: "كيف تيكم" فقلت له: أتأذن لي أن آتي أبوي. فأذن لي.. فقلت لأمي: ماذا يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية هون يعليك فوالله قلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها، لها ضرائر، إلا كثرن عليها. فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكي. قالت: دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله، فأما أسامة فأشار بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم لهم في نفسه. وقال: أهلك ولا نعلم إلا خيرا.

---

(٧١) يرى أبو حنيفة أن يكون القذف صريحا وإلا انتقلت العقوبة إلى تعزير والشافعي يرى الحد على التعريض أو الكناية إذا ثبتت نية القاذف. ومالك يرى ذلك إذا فهم منه القذف.

وقضى عمر وعثمان في خلافتيهما بما أخذ به مالك.

(٧٢) هجا حسان بن ثابت صفوان بن المعطل كدأب الشعراء إذ يهيج العاطفة شيطان الشعر فينظمون. واعترضه صفوان بالسيف فوثب ثابت بن قيس بن شماس على صفوان حين ضرب حسان فجمع يديه إلى عنقه بحبل. وطلب النبي الرجلين قال صفوان: يا رسول الله آذاني وهجاني فاحتملني الغضب فضربته. قال عليه الصلاة والسلام لحسان: (أحسن يا حسان أتشوهت على قومي أن هداهم الله للإسلام؟ أحسن يا حسان في الذي أصابك) قال حسان: هي لك يا رسول الله.

وأما علي فقال: يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير. وسل الجارية تصدقك.

فدعا رسول الله ﷺ بريرة قالت: والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرا قط أغمصه غير أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله.

قالت: فقام رسول الله يومئذ فاستعذر من عبد الله بن أبي وهو على المنبر فقال: (يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي. والله ما علمت على أهلي إلا خيرا ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما يدخل على أهلي إلا معي).

وأصبح والداي عندي وقد بكيت ليلتين ويوما لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم،فبيمنا أبواي جالسان عندي وأنا أبكي.. دخل رسول الله ﷺ ثم جلس، ولم يجلس عندي من قيل ما قيل قبلها، ثم قال: أما يا عائشة إنه بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله. وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإن العبد إن اعترف ثم تاب تاب الله عليه.

فقلت لأبي: أجب رسول الله ﷺ عني.

فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

فقلت لأمي أجيبي رسول الله ﷺ.

فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

فقلت – وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيرا:

والله لقد علمت لقد استمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به. فلئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني. وإن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقني. فوا لله لا أجد لي ولكم مثلا إلا أبا يوسف – يعقوب عليه السلام – حين قال: (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) ثم تحولن فاضطجعت على فراشي والله يعلم أني حينئذ بريئة وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحيا يتلى، فإني في نفسي أحقر من أن يتكلم الله في بأمر، لكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في اليوم ما يبرئني الله به. فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل الله عليه. فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه لينحدر منه العرق مثل الجمان وهو في يوم شات، من ثقل القول الذي أنزل عليه، فسري عن رسول الله وهو يضحك، فكانت أول كلمة أن قال: (يا عائشة أما والله فقد برأك الله). فقالت لي أمي: قومي إليه.

فقلت: لا والله لا أقوم إليه فإني لا أحمد إلا الله عز وجل وقالت: وأنزل الله {إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم..}.

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عن أمري: ماذا علمت أو رأيت فقالت (يا رسول الله أحمي سمعي وبصري والله ما علمت إلا خيرا). وهي التي كانت تسامين من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع.

قالت عائشة: وطفقت أختها حمنة تحارب لها فيمن هلك.

قال ابن شهاب: قالت عائشة: والله إن الرجل الذي قيل عنه ما قيل ليقول: سبحان الله فوالذي نفسي بيده ما كشفت من كنف أنثى قط. قالت: ثم قتل بعد ذلك في سبيل الله.

ويرو الماوردي (علي بن محمد بن حبيب) ٤٥٠هـ (قاضي القضاة) أن في حد أصحاب الإفك قولين قيل حدوا وقيل لا.

* * *

وإذا لاحظنا أن الذين وقعوا في الإثم يؤخذ عليهم في بعض كتب السيرة أنهم كانوا ممن أفصح بالفاحشة فضربوا حدهم.

فهذا يفهم منه أن ترديد الخبر الفاحش يوجب العقوبة، ولهذا أوخذ من وقعوا في حبائل ابن أبي. ولم يزعم أحد أن أحدا شهد شيئا، بل إن صفوان جاء بأم المؤمنين عائشة بحكم وظيفته ولو تركها حتى يعود غيره ليحملها لأثم. والأمناء يؤدون واجباتهم مطمئنين. ولا أحد يذكر أن ابن أبي قد حد. وإنما اكتفى الرسول بتعزيره على الوجه الذي رآه وربما عزر غيره.

وعلم الله المؤمنين كثيرا في آيات سورة النور (١١ – ٢٠): {إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم. لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين. لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون. ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم. إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم. ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم. يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين. ويبين الله لكم الآيات والله

عليم حكيم. إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون. ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم}.

هكذا انتظر رسول الله في شأن حديث الإفك شهرا أو أكثر.

ورسول الله يعلم أمر بيته وأهله، وصحبه وجيشه، وواجبات الرجال إذا كانوا على ساقة الجيش يجمعون ما يتخلف من عتاده. وربما كان الانتظار لأن الذي تولى كبر الإفك عبد الله بن أبي قد نزل فيه الوحي منذ قليل في سورة (المنافقون) وأصبح المنافقون محكومين بأحكام السورة وجملتها (أن النبي مخير فيهم على حسب ما يظهر له) ولهذا أطال أيام تخيره ليعلم أمر الله فيما جد من رجل نزلت من أجله سورة كاملة من أيام، وما يزال يسدر في نفاقه. فلما نزلت الآيات في الإفك اكتفى في شأن ابن أبي بما ورد فيها. فرأى تعزيره ابن أبي في الخطبة كافيا ونزول القرآن شافيا. وسيبقى يستغفر لابن أبي...

وكان طبيعيا أن يسأل فهو زوج وإمام وقائد، وهو رسول الله. ولعله ﷺ لما سأل عليا وأسامة كان يسألهما ليعرف وقع الإشاعات في الناس أو ليعلم جديدا عن المنافقين. فأما أسامة فلم يتعد حد الشهادة وأما علي فشق عليه حزن الرسول، وعلي – والإجماع على أنه أقضى الصحابة – مفطور على العقلية القضائية. ولذلك يضيف سببا قضائيا هو البينة بسؤال بريرة ليرتاح باله عليه الصلاة والسلام، فكانت الشهادة كما يعرف الرسول وعلي وأسامة وبريرة والمسلمون أجمعون.

* * *

كانت أم مسطح بنت خالة أبي بكر وهو فقير ينفق عليه أبو بكر فحلف ألا ينفق عليه جزاء ما فرط منه مما قد يفيد عدم توقيع الحد، فلو حد لكان الحد حسبه. فرسول الله قد نهى الذين لاموا محدودا في شرب الخمر بعد حده، ولما نزل قوله تعالى في سورة النور {ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكن والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم}، قال أبو بكر رضي الله عنه: بلى والله إني أحب أن يغفر لي وعاد للنفقة عليه.

ومسطح حامل راية عبيدة بن الحارث إلى بطن رابغ، وهو بأبيه وأمه من بني المطلب وهم وبنو عبد المطلب شئ واحد كما قال رسول الله وشبك أصابعه، ومسطح – بعد – من أهل بدر وقد غفر الله لهم، وإذا لم يخرجهم ذلك من دائرة التكليف والمساءلة فإنهم يموتون على إيمان وتوبة.

وحمنة بنت جحش أمها أميمة عمة رسول الله. وحمنة من الأوليات إسلاما وهجرة للحبشة، ولها ببطولات الإسلام في بدر ثم في أحد أوثق الصلات. كما حملها يوم أحد أعظم التبعات:

لقد رجع رسول الله من أحد فقال لها: "احتسبي خالك حمزة"(٧٣).. وبكت ولم يسكت ليضيف "احتسبي أخاك عبد الله بن جحش".. وبكت ولم يسكت إلا هنية وهي تسترجع وتحتسب مرة بعد مرة ودموعها تسيل ليضيف المصاب الأخير "احتسبي زوجك مصعب بن عمير".

ودعاء لها ولأبناء مصعب. فتزوجها طلحة بن عبيد الله، طلحة الجود، وبها يجتمع عنده زوجات أربع هن أخوات لزوجات له ﷺ.

وكان طلحة أوصل الناس لولد مصعب. ولما لودت لطلحة طفلا حمله إلى رسول الله فبارك الوليد. وسماه "محمدا".

(٧٣) شارك حمزة – رضي الله عنه الرسول في مرضعين. الأولى ثوبية، والثانية حليمة السعدية عندما رضع حمزة في بني سعد بن بكر. وشارك في الرضاع من ثوبية أبو سلمة بن عبد الأسد

عزم رسول الله ﷺ أداء العمرة، فلقد أراه الله في منامه أنه معتمر. ورؤى الأنبياء حق لا حلم. فقصد إلى مكة ومعه ألف وأربعمائة فيهم مائتا فارس. طليعتهم عشرون يسوقون البدن أمامهم، وليس معهم سلاح إلا السيوف في القرب ليظهر للجميع أنه يقصد العمرة. وبلغ المشركين خروجه فقالوا: والله لا تسمع العرب أنه قد دخل علينا عنوة وقدموا خالد بن الوليد في مائتي فارس إلى موضع خارج مكة.

فلما علم رسول الله بخروج خالد مع فرسانه قال "يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله تعالى عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله تعالى به حتى يظهره الله تعالى أو تنفرد هذه السالفة[٧٤].

ولما دنا من الحديبية – قريبا من مكة – بركت ناقته (القصواء) فقال: حبسها حابس الفيل عن مكة[٧٥] ثم قال (والذي نفس محمد بيده لا يسألوني اليوم خطة فيها تعظيم حرمات الله تعالى إلا أعطيتهم إياها) وزجر الناقة فقامت وأمطرتهم السماء فكانت بشيرا.

وجاء رجال من خزاعة، وكانوا أوفياء لرسول الله فمنهم أم جده عبد مناف، وبينهم وبين عبد المطلب حلف وفيهم المسلم والموادع، فأخبروه باستعداد قريش للحرب فقال: "إنا لم نأت لقتال أحد إنما جئنا لنطوف بهذا البيت فمن صدنا عنه قاتلناه إن قريشا قد أضرت بهم الحرب ونهكتهم فإن شاءوا ماددتهم مدة يأمنون فيها ويخلون فيما بيننا وبين الناس"، فأنبأوا قريشا بما سمعوا من النبي وما رأوا من حال صحبه.

وأبت قريش اعتماره قالت: أخبروه عنا أنه لا يدخلها علينا عامة هذا أبدا.

وخرج منهم عروة بن مسعود الثقفي إلى رسول الله يجادله فلما فرغ عاد إلى قريش يقول يا قوم إني وفدت إلى الملوك كسرى وقيصر والنجاشي وما رأيت ملكا قط أطوع فيما بين ظهرانيه من

---

(٧٤) السالفة صفحة العنق.

(٧٥) أيام محاولة أبرهة غزو مكة في حياة عبد المطلب جد النبي عليه الصلاة والسلام.

محمد في أصحابه.. وليس بملك. عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها قالوا: نرده عامنا هذا ويرجع إلى قابل.

ودعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب وهو سفير قريش السابق ليسفر بينه وبين قريش.

قال عمر: يا رسول الله إني أخاف قريشا وقد عرفت عداوتي لها وليس بها من بني عدي من يمنعني.. إني أدلك على رجل أعز مني وأكثر عشيرة وأمنع وإنه يبلغ لك ما أردت: عثمان بن عفان(يقصد أنه من بني عبد شمس وزعيم قريش أبو سفيان). فدعا رسول الله عثمان فقال له: (اذهب إلى قريش وأخبرهم أنا لم نأت لقتال وإنما جئنا عمارا وادعهم إلى الإسلام).

وأمره أن يلقى بمكة رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات فيدخل عليهم ويبشرهم "بالفتح" ويخبرهم أن الله تعالى وشيكا أن يظهر دينه بمكة حتى لا يستخفى فيها الإيمان.

فانطلق عثمان فلقيه أبان بن سعيد بن العاص أبي أحيحة (من بني عبد شمس) فأجاره وأركبه فرسه وركب وراءه، فدخل به مكة مكرما حيث أقام ثلاثة أيام يأتي أشراف مكة رجلا رجلا. فيرفضون. ويأتي رجالا ونساء مؤمنين مستضعفين فيبشرهم.

وبعثت قريش – وعثمان يفاوضها – خمسين رجلا ليصيبوا من المسلمين غرة فأخذهم محمد بن مسلمة وكان على الحرس، إلى رسول الله. وفي الوقت ذاته دخل رجال من المسلمين مكة بإذن رسول الله، فيهم عبد الله بن سهيل بن عمرو بأخذتهم قريش. وجاء جمع من المشركين بعد حبس أصحابهم فأسر منهم المسلمون اثنى عشر فارسا فوق الخمسين رجلا.

وأوفدت قريش ثلاثة فيهم سهيل بن عمرو ليفتكوا المحبوسين.. وقال رسول الله إني غير مسلمهم حتى ترسلوا أصحابي.

وقيل لرسول الله:ليس بالوادي ماء فأعطى سهما لرجل غرزه في بئر فجاش الماء حتى كفى الجيش.

وأوجس المسلمون خيفة لغياب عثمان.

وقال رسول الله: (لا نبرح حتى نناجز القوم).

بيعة الرضوان:

فجلس تحت شجرة خضراء وقال: (إن الله تعالى أمرني بالبيعة) ثم لبسوا السلاح القليل الذي جاءوا به فبايعوه على أن يضربوا بسيوفهم حتى يظهرهم الله على المشركين أو يقتلوا. وضرب رسول الله بيده الأخرى مبايعا لعثمان وقال يومئذ: (لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة).

ورأى ذلك سهيل بن عمرو وصاحباه فاشتد رعبهم وأسرعوا يتفاوضون لا في الأسرى وحدهم ولكن في الهدنة والصلح.

وكان النبي ﷺ قد قال عندما رأى سهيلا (أراد القوم الصلح حين بعثوا بهذا). ثم قدم عثمان بعد أن أحسن أداء مهمته.

فرسول الله ﷺ قد فاوض وفي يده من أسرى العدو بضعة وستون وفي قومه ألف وأربعمائة بسلاحهم. فهو يفاوض من موقع القوة.

صلح الحديبية:

ولما بدأت المفاوضات جلس رسول الله متربعا، على رأسه اثنان مقنعان من الحديد. وبرك سهيل على ركبتيه وأطال الكلام. وانتهى الطرفان إلى شروط.

١- أن يأمن الناس بعضهم بعضا عشر سنين وقيل أربعة وقيل سنتين.

٢- أن يرجع رسول الله عامه هذا.

٣- أن يخلوا بينه وبين مكة العام القابل فيدخلها والمعتمرون معه لمدة ثلاثة أيام دون سلاح.

٤- أن من جاءه بغير إذن وليه يرد إليهم وإن كان على دينه وأن من جاءهم من دين محمد لم يردوه.

٥- وأن من يدخل في عقد محمد وعهده من القبائل دخل فيه ومن دخل في عقد قريش وعهدها دخل.

وتواثبت خزاعة فقالت: نحن في عقد محمد وعهده وتواثبت بنو بكر فقالت: نحن في عقد قريش وعهدهم.

* * *

وكره المسلمون هذه الشروط جملة لأنها منعتهم عمرة أحرموا لها وحالت بينهم وبين مكة مع قول رسول الله إنه رأى في المنام أنه سيدخل مكة بعمرة. ورأى بعضهم الحيلولة دون البيت الحرام مدعاة للحرب.

وذهب عمر إلى رسول الله يقول: يا رسول الله. ألست نبي الله حقا؟ قال: بلى.

قال عمر: ألسنا على الحق وهم على الباطل.

قال: بلى.

قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟

قال: بلى.

قال: علام نعط الدنية في ديننا، ونرجع ولم يحكم الله بيننا وبينهم؟

قال رسول الله ﷺ: إني عبد الله ورسوله. ولست أعصيه. ولن يضيعني وهو ناصري.

قال عمر: ألست كنت تحدثنا أننا سنأتي البيت ونطوف به حقا؟

قال رسول الله: أفأخبرتك تأتيه العام؟

قال عمر: لا.

قال رسول الله: فإنك آتيه ومطوف به.

وذهب عمر إلى أبي بكر.. قال أبو بكر له: أيها الرجل إنه رسول الله ولن يعصى ربه وهو ناصره فالزم غرزه(٧٦).

* * *

(٧٦) الغرز للجمل كالسرج للفرس.

أخذ رسول الله يملي الشروط وعلي يكتب (بسم الله الرحمن الرحيم).

قال سهيل: اكتب في قضيتنا ما نعرف أما الرحمن الرحيم فلا أعرف ما هو. فقال النبي: (اكتب باسمك اللهم) واستأنف النبي يملي: (هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله) قال سهيل: لو كنا نعرف أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك اكتب في قضيتنا ما نعرف. اكتب محمد بن عبد الله. فقال النبي لعلي: (امحه) فجعل علي يتلكأ، يأبى أن يكتب غير محمد رسول الله، فأخذ رسول الله الكتاب ومحاه. واستمر يملي الشروط.

وبينما هم يكتبون جاء (أبو جندل) بن سهيل بن عمرو نفسه يرسف في قيوده ويطلب من المسلمين أن يجيروه من أبيه الذي قيده لأنه مسلم.

قال سهيل للنبي: هذا أول ما أقاضيك عليه...

قال رسول الله: (يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا. إنا قد عقدنا مع القوم صلحا وإنا لا نغدر) وزاد أمر أبي جندل غضب الناس على سهيل ونفورهم من العهد ولكنه تم. وكتبه علي وشهد عليه من المسلمين: أبو بكر وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف "وعبد الله بن سهيل بن عمرو" وسعد بن أبي وقاص ومحمود بن مسلمة ومن المشركين سهيل بن عمرو ومكرز بن حفص وآخرون.

ولما فرغ رسول الله من الكتابة قال للناس: قوموا فانحروا ثم احلقوا فما قام أحد، حتى أمرهم ثلاث مرات وهم واجمون. فاشتد ذلك عليه، فدخل على أم سلمة فقال: هلك المسلمون أمرتهم أن ينحروا ويحلقوا فلم يقبلوا!

قالت يا رسول الله لا تلمهم فإنه قد دخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك في أمر الصلح ورجوعهم بغير الفتح. يا نبي الله اخرج ولا تكلم أحدا كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك.

فخرج فأخذ الحربة ويمم هديه وأهوى بالحربة على البدن رافعا صوته: (باسم الله الله أكبر) ونحر.

وتواثب المسلمون إلى الهدي ينحرونه حتى كان بعضهم يقع على بعض.

ولما فرغ من البدن دعا حالقه فحلق رأسه ورمى شعره على شجرة فجعلوا يأخذون الشعر من الشجرة فيتحاصونه.

وبدأ الرجوع إلى المدينة.

وسمع رسول الله واحدا يقول: ما هذا بفتح لقد صددنا عن البيت وصد هدينا. فقال ﷺ: (بئس الكلام بل هو أعظم "الفتح" قد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح (الكف) عن بلادهم. ويسألوكم القضية، ويرغبوا إليكم في الأمان، ولقد رأوا منكم ما كرهوا، وأظفركم الله عليهم وردكم سالمين وردكم مأجورين. وهو أعظم الفتح. أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على شئ. أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم).

قالوا: صدق الله ورسوله فهذا أعظم الفتح(٧٧).

سورة الفتح:

قال عمر: كمنا مع رسول الله ﷺ في سفر الحديبية وهم عائدون فسألته عن شئ ثلاث مرات فلم يرد علي. فقلت في نفسي ثكلتك أمك يابن الخطاب نزرت (ألححت) رسول الله ثلاث مرات فلم يرد عليك! فحركت بعيري ثم تقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل في قرآن، فما نشبت أن سمعت صارخا يصرخ بي فرجعت وأنا أظن أنه نزل في شئ، فقال النبي ﷺ: لقد أنزلت علي الليلة سورة

---

(٧٧) وبذلك نزلت سورة الفتح وهم عائدون فأعلنت أن الصلح "فتح مبين" فالفتح الأعظم فتح (بالسلام) وذكرت ما أنزل الله من "السكينة" في قلوب المؤمنين ثلاث مرات مع أنها نزلت في جميع القرآن ست مرات – لتصرف عن المسلمين ما ألم ببعضهم في ذلك اليوم من الغم. يقول تعالى في سورة الفتح {هو الذي أنزل "السكينة" في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم}.

ويقول: {لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل "السكينة": عليهم وأثابهم فتحا قريبا} ويقول: {.. فأنزل الله "سكينته" على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها...}.

والثلاثة الأخرى نزلت في مواضع ذات شأن كذلك: اثنتان في سورة التوبة الأولى (الآية ٢٦) خاصة بيوم حنين، والثانية (الآية ٤٠) خاصة برسول الله إبان هجرته وفي الحالتين أيده الله بجنود لم يروها. أما الآخرة ففي البقرة ٢٤٨ وفيها آية حمل الملائكة التابوت: {وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه "سكينة" من ركم وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين}.

هي أحب إلي من الدنيا ومافيها: إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر إلى آخر سورة الفتح.

وقال ابن مسعود أقبلنا من الحديبية مع رسول الله ﷺ فبينما نحن نسير إذ أتاه الوحي. وكان إذا أتاه الوحي اشتد عليه فسرى عنه وبه من السرور ما شاء الله فأخبرنا أنه أنزل عليه: {إنا فتحنا لك فتحا مبينا}.

وفي حجة الوداع قال عليه الصلاة والسلام وهو واقف: (أي عمر هذا الذي قلت لكم إني رسول الله. والله ما كان فتح في الإسلام أعظم من صلح الحديبية وكان الناس قصر رأيهم عما كان) فالفتح الأعظم فتح (بالسلام).

وكان أبو بكر رضي الله عنه يقول، بعد فتح مكة وبعد أن أسلمت قريش. في حجة الوداع: ما كان فتح في الإسلام أعظم من صلح الحديبية. وكان الناس قصر رأيهم عما كان بين رسول الله ﷺ وبين ربه. والعباد يعجلون والله لا يعجل لعجلة العبد حتى يبلغ الأمور ما أراد، ولقد رأيت سهيل بن عمرو قائما عند المنحر.. يقرب للرسول بدنه ورسول الله ﷺ ينحرها بيده، ودعا الحلاق فحلق رأسه فأنتظر إلى سهيل يلقط من شعره وأراه يضعه على عينيه وأذكر امتناعه أن يقر يوم الحديبية بأن يكتب (بسم الله الرحمن الرحيم) فحمدت الله تعالى أن هداه للإسلام.

فالفتح المبين بنصوص القرآن الصريحة هو صلح الحديبية ويشرح (الزهري) ذلك بقوله: أمن الناس كلهم وكلم بعضهم بعضا وتفاوضوا في الحديث والمنازعة ولم يكلم أحد يعقل شيئا بالإسلام إلا بادر إلى الدخول فيه. ولقد دخل في تينك السنتين (اللتين لحقتا الصلح وفيهما نقضته قريش وحلفاؤها بنو بكر) مثل ما كان دخل في الإسلام قبل ذلك أو أكثر.

وكان وثوب بني بكر وخزاعة للدخول في حلف مع كل من الطرفين تقديرا قدرته السماء لأمر سنراه في فتح مكة.

يقول ابن هشام: إنه ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة وخرج بعد سنتين إلى مكة في عشرة آلاف من كل القبائل.

وأما قوله تعالى {إذا جاء نصر الله والفتح} وقوله عليه السلام: (لا هجرة بعد الفتح) فالمقصود بهما فتح مكة.

وفي سورة الفتح رضي الله عمن بايعوا تحت الشجرة فهذه بيعة الرضوان. ووعد المؤمنين فتحا (قريبا) وغنائم كثيرة عجل بعضها وصدق رسوله الرؤيا بالحق إذ رأى الرسول في المنام أنه يدخل مكة وأصحابه (محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعملوا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا).

وذكر كذلك إنقاذ من يخفون إسلامهم ممن يخالطون المشركين، بخطة السلام. وكان اقتحام مكة بدل الصلح مؤديا إلى قتلهم وقتل مشركين سوف يسلمون بعد نحو عامين إذ تفتح مكة أو في أثناء الهدنة.

وفي إبان الهدنة هرب أبو بصير بدينه إلى المسلمين في المدينة فرده الرسول إليهم وفاء بالعهد وفيما كان عائدا إلى مكة بين اثنين من المشركين جاءا في طلبه، قتل أحدهما وهرب الثاني منه. فانتحى ناحية بشاطئ البحر فأقام فيها وانضم إليه بعد حين أبو جندل في سبعين راكبا من المسلمين فارين من مكة. ثم صاروا ثلاثمائة من مكة وسواها يغيرون على عير قريش وعلى أهل مكة فاستغاثت قريش النبي ليضمهم إليه بالمدينة فيحمي المشركين بمكة فتدخل ﷺ.

وقدم أبو جندل ومعه نفر من المسلمين بعد إذ مات أبو بصير ومعه نفر من المسلمين ورجع سائرهم إلى مكة آمنين.

وارتاحت قريش لوجودهم فيها واطمئنانها على قوافلها ولم يعد المسلمون في مكة مستخفين مستضعفين وسنرى قريشا تستعين برسول الله في أن يجيئها القمح من نجد فيعينها.

وأفزع المشركين تكاثر المسلمين بمكة وارتفاع شمس الإسلام في الأفق في مدة الهدنة وأخذ بعضهم يعد العدة لحربهم إذا قدموا لغزو مكة. وأصبح في بعض البيوت نساء مسلمات لأزواج لم يسلموا.

قالت زوجة من قريش أسلمت سرا لزوجها إذ رأته يبر نبلا: لم؟ قال: أعده لمحمد وأصحابه لو قدموا. قالت: والله ما يقوم لمحمد وأصحابه شئ لو قدموا.

قال: إني لأرجو أن أخدمك بعضهم.

قالت: لكأني بك وقد رجعت تطلب مخبأ أخبئك فيه.

وستراه يجيئها يطلب إليها مخبأ يوم فتح مكة.

أما عمر فقال: فيما بعد: ما زلت أتصدق وأصوم وأعتق من الذي صنعت يومئذ (يوم صلح الحديبية).

وقال: اتهموا الرأي على الدين فلقد رأيتني أرد رأي رسول الله برأيي وما ألوت على الحق، رضي رسول الله وأبيت! حتى قال: (يا عمر تراني رضيت وتأبى).

obeikandl.com

الفصل الثاني
نصر الله والفتح

{وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين}.

التوبة ٣٦

{إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا}.

النصر

كان المسلمون في إبان دعوتهم من مكة يتلون سورة الفتح وهي صرحية فيما وعد الله به المعتمرين. والوعود من الله انتصارات فعلية لدى المؤمنين.

يقول تعالى: {لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم، وأثابهم فتحا قريبا، ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما. وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم} فهنا رضوان من الله وسكينة، وفتح قريب،ومغانم كثيرة،ومغانم معجلة وسلامة وأمنة. ثم يتكلم سبحانه عمن في مكة من المسلمين الذين لا يعلنون إسلامهم وسلامتهم بالصلح.

ثم يقول جل ثناؤه: {لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا} فهنا دخول المسجد الحرام مع الأمنة والاطمئنان، وبعد أن يثيبهم "فتحا قريبا" ومغانم كثيرة بعضها معجل. ثم يضيف إلى تأكيده {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا}. وكل ذلك سوف يقع في موعده، بالمقدار، والترتيب، والتعقيب، كما سترى.

ثم تختتم السورة بوصف للرسول وصحبه يشد أزرهم ويسدد خطاهم.

وفي أنوار هذا الفتح بعثت الدولة المنتصرة رسلها تعلن دينها وتدعو إليه ملوك العالم وشعوبهم في القارات الثلاثة المعروفة وإمارات جزيرة العرب المتاخمة، فمنهم من أسلم ومنهم من انتظر ليسلم بين أيدي الجيوش التي وجه الرسول أنظار صحبه إلى تجييشها لفتح العالم.

١- الفتح وملوك العالم

أخذت دعوة رسول الله تنفتح على العالم كله فكاتب الدول والشعوب في أشخاص الملوك داعيا إلى دين الله وختم كتبه بخاتم نقش عليه اسمه وصفته.

١- كتب إلى ملك البحرين (بسم الله الرحمن الرحيم. سلم أنت. وإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد فإن من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم له ذمة الله وذمة الرسول. من أحب ذلك من المجوس فإنه آآمن ومن أبى فإن عليه الجزية).

وأسلم الملك ورد بأنه عرض الكتاب على أهل البحرين فمنهم من أسلم ومنهم من كره وبأرضه مجوس يرجو أن يحدث الرسول له في شأنهم أمرا، فكتب إليه أن (من أقام على يهوديته فعليه الجزية).

٢- وجه كتابا إلى ملكي عمان مما جاء فيه (اسلما تسلما. فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما وإن أبيتما فإن ملككما زائل وخيل تحل بساحتكما وتظهر نبوتي على ملككما). وأسلم الملكان.

٣- ووجه بكتاب إلى ملك اليمامة بنجد جاء فيه (سلام على من اتبع الهدى. واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر فأسلم تسلم وأجعل لك ما تحت يدك) فكتب الملك إليه ليجعل له بعض الأمر معه ليتبعه. فقال عليه السلام: (لو سألني قطعة من الأرض ما فعلت باد وباد ما في يديه) فمات الرجل والرسول في فتح مكة ثم جاءت وفود اليمامة مسلمة.

٤- ووجه إلى النجاشي كتابا فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة. أما بعد فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس المهيمن وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعني..).

وأجل النجاشي الكتاب ورد بأنه يعلم أن عيسى بشر بالنبي وطلب أن ينظره الرسول زمنا حتى تلين قلوب أتباعه. وقيل إنه أسلم. والمعروف أن رسول الله نعاه للمسلمين إذ مات وخرج إلى المصلى وصف الناس وصلى أربعا. فهذا دليل إسلامه. وطلب ﷺ من المهاجرين إلى الحبشة موافاته بالمدينة.

٥- ووجه حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس عظيم القبط(مصر) بكتاب ماز فيه المصريين من الرومان الحاكمين – وهو حاكم مصر للرومان – وفيه: (أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين.وإن توليت فإن عليك إثم القبط...) فكتب المقوقس إليه أنه يعلم أن نبيا قد بقى. وكان يظن أنه سيظهر بالشام، وبعث إلى بجاريتين تسرى عليه السلام بإحداهما (مارية) ومنها ولده إبراهيم. وأهدى الأخرى إلى حسان بن ثابت، ومنها ابنه عبد الرحمن. ولم يسلم المقوقس.

وفتح الله على المسلمين مصر بعد أعوام وجلا المقوقس مع الروم.

٦- وكتب إلى قصير الروم: (من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فإن عليك إثم الإريسين (الفلاحين أو أتباع أريوس الذين أشرنا إليهم في الباب الأول) {قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون}).

وجاء الخطاب قيصر، وأبو سفيان بن حرب بالشام في تجارة، فدعاه ومن معه للقائه فقدم عليه في بيت المقدس.

وروى أبو سفيان حديث مقدمه عليه فقال: (انطلقت في مدة الهدنة التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ فبينما أنا بالشام إذ جئ بكتاب من النبي ﷺ إلى هرقل وكان دحية الكلبي جاء به فدفعه إلى عظيم بصرى فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل فقال هرقل: هل هنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟

فدعيت في نفر من قريش فدخلنا على هرقل قال: أيكم أقرب نسبا إلى هذا الرجل؟ فأجلسوني بين يديه وأجلسوا أصحابي خلفي ثم دعا بترجمانه فقال: قل لهم: إني سائل عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي فإن كذبني – يعني أبا سفيان – فكذبوه. ثم أمر الترجمان.

سله:كيف حسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو حسب قال: فهل كان من آبائه ملك؟ قلت لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت لا. قال: أفيتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم قال: يزيدون أو ينقصون؟ قلت: لا. بل يزيدون. قال: هل يرتد أحد منهم عندينه بعد أن يدخل فيه سخطة له؟ قلت: لا قال: هل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت الحرب بيننا وبينه سجال يصيب منا ونصيب منه قال: فهل يغدر؟ قلت: لا ونحن منه في "هذه المدة" لا ندري سماه وصانع فيها.

قال أبو سفيان وهو يروي لابن عباس: والله ما أمكنني من كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه.

قال هرقل: فهل قال هذا القول أحد قبله؟ قلت لا.

قال لترجمانه:

قل له: إني سألتك عن حسبه فيكم فزعمت أنه فيكم ذو حسب فكذلك الرسل تبعث في أحساب قومها. وسألتك هل كان في آبائه ملك. فزعمت أن لا فقلت: لو كان من آبائه ملك قلت رجل جاء يطلب ملك آبائه. وسألتك عن أتباعه فقلت ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل. وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فزعمت أن لا، فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله. وسألتك هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له فزعمت أ، لا. وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب. وسألتك هل يزيدون أم ينقصون فزعمت أنهم يزيدون وكذلك الإيمان. وسألتك هل قاتلتموه فزعمت أنكم قاتلتموه فتكون الحرب بينكم سجالا ينال منكم وتنالون منه وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة. وسألتك هل يغدر قلت إنه لا يغدر وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك هل قال أحد هذا القول قبله فزعمت أن لا، فقلت لو كان قال أحد هذا القول قبله قلت رجل أتى بقول قيل قبله.

قال أبو سفيان: ثم قال: بما يأمركم؟ قلت: يأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف.

قال: إن يك ما تقول فيه حقا فإنه نبي وقد كنت أعلم أنه خارج. ولم أكن أظنه منكم. لو أني أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه. ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه فإذا فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم إلى قوله اشهدوا بأنا مسلمون).

فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده وكثر اللغط، وأمر بنا فأخرجنا، فقلت لأصحابي أمر أمر ابن أبي كبشة[٧٨] إنه ليخافه ملك بني الأصفر. فما زلت موقنا بأن أمر رسول الله سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام.

٧- وأرسل إلى أمير بصرى بالشام فلما بلغ الرسول مؤتة تعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فقتله. ووجد النبي لقتله.

٨- وكتب إلى كسرى ملك الفرس: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس. سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا

---

(٧٨) أبو كبشة زوج حليمة السعدية مرضع رسول الله عليه الصلاة والسلام.

شريك له وأن محمدا عبده ورسوله. أدعوك بدعاية الله فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين. أسلم تسلم. فإن أبيت فإن عليك إثم المجوس).

ومزق كسرى الكتاب وبلغ ذلك رسول الله فقال: (مزق الله ملكه كل ممزق) فلم تمض بضع سنوات حتى تهاوى ملكه تحت سنابك خيل المسلمين ثم قتل.

٩- ووجه كتابا إلى أمير دمشق من قبل هرقل. فلما قرأ الكتاب رمى به وأرس لإلى هرقل يطلب رأيه فنهاه عن أن يخبر النبي بما صنع بكتابه.

obeikandl.com

٢- الفتح القريب والمغانم المعجلة

فتح خيبر وماوراءها

قال تعالى في سورة الفتح {لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا. ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما. وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه...} وصدق الله العظيم. فقد وقع ذلك على الفور وفي مواعيده ومقاديره.

كانت خيبر هي الفتح القريب ومغانمها هي المعجلة – وهي كبرى معاقل اليهود يأوى إليها المطرودون والحاقدون وتخرج منها المكايد – فلم يلبث ﷺ بالمدينة بعد إذ رجع من الحديبية إلا عشرين يوما ثم استنفر من شهدها معه.

وخرج إلى خيبر في المحرم من أول السنة السابعة ومعه أم المؤمنين أم سلمة، وقد عرف اليهود بمسيره إليهم فكانوا يخرجون في كل يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفا للتدريب واستعراض القوة. ولديهم حصون ثلاثة يتحصنون فيها، واثقين بأنها لا قبل لعدو بما فيها من أسلحة.

وخيبر على مبعدة ميل في الشمال من المدينة انتهى إليها رسول الله ليلا فلم يغر عليهم (لأنه لم يكن يغير بالليل حتى يصبح فإذا سمع أذانا أمسك) فلما خرج أهلها عند الصبح أدبروا هربا يتصايحون: محمد والخميس!! (الجيش العرمرم) قال رسول الله: (الله أكبر خربت خيبر. إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين).

ونزل في مواجهة الحصون فجاءه الحباب بن المنذر يقول: يا رسول الله لقد دنوت من الحصون فإن كان من أمر أمرت به فلا نتكلم. وإن كان الرأي تكلمنا. قال ﷺ: "هو الرأي". قال: لقد دنوت من الحصون ونزلت بين ظهري النخل والغر (ما يتحلب من الماء من الأرض) ولي معرفة بأهل النطاة (أصحاب هذه الحصون) ليس قوم أبعد مدى سهم منهم ولا أعدل رمية. وهم مرتفعون علينا تنالنا نبالهم. ولا نأمن من بياتهم يدخلون في خمر النخيل. فتحول يا رسول الله إلى موضع برئ.

قال ﷺ: (أشرت بالرأي ولكن نقاتلهم هذا اليوم) وأمر باختيار مكان آخر.

فللحباب مشورتان أسلفنا الأولى في بدر وهذه الثانية في خيبر وكل منهما خاصة بمنزل الجيش، وبكل منهما عمل رسول الله.

وفي هذه الغزوة قال لأصحابه: (والذي نفسي بيده لئن سلمتم وعشتم قليلا ليكثرن زادكم وليكثرن ما تتركون لأهليكم، ولتكثرن عبيدكم ودراهمكم. وما ذلك بخير).

كان الحصن الأول من قلاع ثلاثة وفي الثاني اثنتان وبالثالث ثلاثة: بدأ رسول الله بأولها فعسكر على مدى النبال وقطع من نخلهم لينزلوا إليه. ثم ترامى الطرفان يوما بعد يوم. ثم ظفر عمر بن الخطاب بعين لليهود أمنه فأنبأهم أن حماة القلعة الأولى خرجوا إلى الحصن الثالث ليبدأوا قتال المسلمين في الغد. وإذا فتح الله على المسلمين هذا الحصن ففيه منجنيق ودبابات (آلات تدفع نحو أصل الحصن فيها رجال ينقبون الحصن وهم في جوفها).

قال رسول الله: (سأعطي الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبانه) فبات المهاجرون والأنصار يتمنى كل منهم أن يكونه، حتى قال عمر: (ما تمنيت الإمارة إلا ليلتئذ) وفي الغد سلم النبي الراية لعلي.

وخرج فارس من اليهود يطلب المبارزة فصرعه علي. ثم خرج بطل القوم فألحقه علي بسابقه. فخرج أخنه فصرعه الزبير بن العوام. والتحم الفريقان واستمر القتال حتى دخل المسلمون الحصون حصنا بعد حصن، يوما بعد يوم. بمعارك دامية. وأصابت بعض النبال رسول الله ﷺ. واستعمل المسلمون المنجنيقات التي عثروا عليها فارتاع أهل الحصون لاستعمالها ضدهم وهي اختراعهم.

ومن الحصون ما حاصره المسلمون عشرين ليلة حتى فتحه الله على علي بن أبي طالب.

وفي الغزوة سبيت صفية بنت حيي بن أخطب وقد أجلى في بني النضير فجاء يتآمر مع أهل خيبر.

وأخيرا استسلم اليهود وعرضوا أن يخرجوا من ديارهم فأجابهم إلى ذلك فخرجوا وليس معهم إلا ملابسهم، وأمر بقتل كنانة بن أبي الحقيق إذ ضلل المسلمين في إبان بحثهم عما يخفيه المنهزمون. واستشهد من المسلمين بخيبر خمسة عشر وقتل من اليهود ثلاثة وتسعون.

وفي هذه الغزوة قدمت امرأة يهودية لحم شاة مسمومة لرسول الله فأخذ منها مضغة ثم لفظها وأكل منها بشر بن البراء فمات لوقته.

وجئ بالمرأة فاعترفت وأضافت: قلت إن كان نبيا لن يضره وإن كان كاذبا أراحنا الله منه. فعفا عنها ﷺ.

وفي هذه الغزاة نهى عن زواج المتعة وهو الزواج لأجل محدود. كما نهى عن أكل الحمر الأهلية إذ طبخها المسلمون فانتهوا وأكفأوا القدور ولم يطعموها.

وبعد انتهاء الحرب تزوج رسول الله من صفية بنت يحي لعل قلوب اليهود تطيب.

* * *

وصدق الله العظيم: كان الفتح القريب الذي نصت عليه سورة الفتح هو فتح خيبر، والمغانم المعجلة مغانمها. وهي بعد الحديبية بشهر وأيام. خص النبي بمغانمها أهل الحديبية الألف والأربعمائة، من حضر منهم غزوة خيبر ومن لم يحضرها، فهذا تنفيذ للنص في سورة الفتح. أما المغانم الكثيرة الأخرى فالمسلمون في طريقهم إليها فيما يفتح عليهم يوم حنين ثم من الروم وفارس ومصر وغيرها إلى يوم الدين.

وفي العودة من خيبر لقى رسول الله جعفر بن أبي طالب غذ رجع بمهاجرة الحبشة وفرح رسول الله بالعائدين بعد غيبة أعوام بضعة عشر وفيهم أم المؤمنين أم حبيبة (رملة بنت أبي سفيان) وكان معهم الأشعريون (قوم أبي موسى) فأعطى الحاضرين.

ودخلت أسماء بنت عميس زوج جعفر على أم المؤمنين حفصة وعندها أبوها فقال عمر لأسماء نعم القوم لولا أنا سبقناكم بالهجرة.

قالت أسماء: لا والله يا عمر. كنتم مع رسول الله يطعم جياعكم ويعلم جاهلكم وكنا في أرض البعداء البغضاء في الحبشة. وذلك في الله ورسوله.

فلما جاء رسول الله قالت: يا رسول الله إن رجالا يفخرون علينا ويقولون إنا لسنا بالمهاجرين الأولين.

قال: من يقول ذلك؟

قلت: عمر.

قال: ما قلت له؟

قلت: قلت كذا وكذا.

قال: ليس بأحق لي منكم. له ولأصحابه هجرة واحدة. ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان.

وكان البرد شديدا في الغزوة.. روى أبو رافع المصري (القبطي) مولى رسول الله: أصابنا في خيبر برد شديد فقال رسول الله: (من كان له لحاف فليحلف من لا لحاف له) ولم أجد من يلحفني فأتيت رسول الله ﷺ فألقى علي لحافه فنمنا حتى أصبحنا.

هذا رسول الله يشرك مولاه في لحافه.

من أجل هذا ونظائره يقول له مولاه الآخر ثوبان: يا رسول الله إني إذا لم أرك اشتقتك واستوحشت وحشة عظيمة ذكرت الآخرة حيث لا أراك هناك لأني إن دخلت الجنة فأنت تكون في درجات النبيين فلا أراك.

فهو لا يكفيه أن يكون بالجنة وإياه إنما يسعده أن يراه هناك.

وأقبل عليه الدوسيون مسلمين في هذا الوقت وفيهم أبو هريرة فأعطاهم.

ورأى يهود فدك جنوبي خيبر على ست ليال من المدينة الانقياد والطاعة إذ دعاهم إليها رسول الله فصالحوه على أن يتركوا الأموال وتحقن دماؤهم وقبل يهود تيماء شمالي خيبر على ثمان مراحل من المدينة أن يدفعوا الجزية ويبقوا في ديارهم آمنين. أما يهود وادي القرى بعد تيماء فأبوا إلا القتال فقاتلهم المسلمون وغنموا منهم مغانم. وترك رسول الله لهم الأرض يزرعونها ولهم الشطر (النصف) مما يخرج منها.

* * *

وأعقب هذا الفتح القريب والمغانم المعجلة التي أثابهم الله بها، كما قال سبحانه، فتح صفحة جديدة من صفحات التاريخ بإسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وقدومهما ومعهما عثمان بن طلحة العبدري من زعماء المشركين فقال عليه السلام لخالد وهو يعده للغد: (الحمد لله الذي هداك. وقد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير).

قال خالد: يا رسول الله ادع الله أن يغفر لي تلك المواطن التي كنت أشهدها عليك. قال عليه السلام: (الإسلام يقطع ما قبله).

٣- عمرة القضاء – دخول المسجد الحرام

يقول الله تعالى في سورة الفتح {لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا} ولقد تم فتح خيبر قريبا وعجل النبي مغانمها لأصحابه في الحديبية، وحل بعدها دخول المسجد، الذي تؤكده السورة، والحلق والتقصير كما تجري المناسك.

ففي ذي القعدة سنة سبع تجهز رسول الله للعمرة التي صالح عليها، وأمر ألا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية، وساق هديه ستين بدنة ودخل مكة من الثنية التي تطلعه على الحجون وكان معهم أسلحتهم. قيل: يا رسول الله شرطوا ألا ندخلها بسلاح قال: (لا ندخله عليهم الحرم ولكن يكون قريبا منا فإن هاجنا هيج من القوم كان منا قريبا).

وبلغوا مشار فمكة فأبقى الهدي بوادي ذي طوى ثم دخل مكة على راحلته والمسلمون حوله متوشحين السيوف يلبون... وعبد الله بن رواحة آخذ بزمام راحلته يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله نحن ضربناكم على تأويله

قال عليه الصلاة والسلام: (قل لا إله إلا الله وحده نصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده). فقالها وقالها الناس.

وقال ﷺ رحم الله امرأ أراهم من نفسه قوة. وفي رواية (أروهم ما يكرهون) وأمرهم أن يرملوا (يهرولوا) ثلاثة أشواط ويمشوا بين الركنين عند الطواف بالكعبة – ليرى المشركون جلدهم. فقال المشركون فيما بينهم: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد أوهنتهم؟!

ولما قضي الطواف دخل الكعبة فلم يزل فيها حتى أذن بلال بالصبح.

قال عكرمة بن أبي جهل عندئذ: لقد أكرم الله تعالى أبا الحكم (أباه) حيث لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول. وقالها صفوان بن أمية بن خلف عن أبيه وخالد بن أسيد عن أبيه. أما سهيل بن عمرو فغطى وجهه.

وأشرك رسول الله أصحاب الحديبية في الهدي فنحروا معه. وأمر مائتين ممن شاركوه في العمرة بعد أن طافوا وسعوا أن يذهبوا إلى موقع السلاح يحرسونه حتى يقضي الحراس نسكهم.

وفي ظهر اليوم الرابع جاء سهيل بن عمرو يذكر عليا بأن الأيام الثلاثة انقضت فبلغ على رسول الله فقال: (لا يمسين بها أحد) وركبوا وقد صارت عدتهم ألفين عدا النساء والصبيان.

وهذه العمرة تدعى عمرة القضاء وعمرة الصلح وعمرة القضية. فهي قضية عمرة وصلح لأن النبي قاضى عليها قريشا.

obeikandl.com

٤- فتح مكة – نصر الله والفتح

دخلت خزاعة في صلح الحديبية مع المسلمين ودخل بنو بكر مع المشركين وخزاعة حلفاء عبد المطلب جد رسول الله ﷺ ولهم منه كتاب بذلك(٧٩).

ولم ينقض على صلح الحديبية إلا عام وبعض عام حتى ذهب زعماء قريش ومنهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل ومكرز بن حفص أحد الموقعين على الصلح ومعهم عبيدهم إلى بني بكر، فهجموا معهم على خزاعة، إذ كان بين القبيلتين ثارات. فلم يزالوا يقتلونهم حتى لاذ الخزاعيون بمكة حيث دار بديل بن ورقاء الخزاعي.

وخرج رأس خزاعة في أربعين فارسا يشكون إلى رسول الله ما كان من صفوان وعكرمة ومكرز وغيرهم فأشكاهم وقال: (ارجعوا وتفرقوا في الأودية).

وأرسل إلى قريش يطلب إليهم أن يعطوا الدية لقتلى خزاعة أو يبرءوا من حلف بني بكر أو ينبذ إليهم على سواء (ينذرهم بالحرب) فلم يستجيبوا له.

أما أبو سفيان فقال: هذا أمر والله ما شوورت فيه ولا هويته حين بلغني وما بدمن أن آتي محمدا فأكلمه أن يزيد في الهدنة ويجدد العهد. فسافر إلى المدينة فدخل على بنته أم المؤمنين "أم حبيبة" وهم بالجلوس على فراش رسول الله فطوته دونه.

قال: يا بنية أرغبت عني بهذا الفراش أو بي عنه؟

قالت: بل هو فراش رسول الله. وأنت مشرك نجس فلم أحب أن تجلس عليه.

قال: يا بنية لقد أصابك بعدي شر.

قالت: بل هداني الله للإسلام وأنت يا أبت – سيد قريش وكبيرها – كيف يسقط عند الدخول في الإسلام وأنت تعبد حجرا لا يسمع ولا يبصر؟ فقام من عندها فأتى رسول الله في المسجد.

قال رسول الله: هل كان من قبلكم حدث؟

---

(٧٩) ونصه (باسمك اللهم هذا حلف عبد المطلب بن هاشم لخزاعة.. إن بيننا وبينكم من عهد الله وعقوده ما لا ينسى أبدا اليد واحدة والنصر واحد) وأجابهم رسول إذ ذكروه به (ما أعرفني بحلفكم وأنتم على ما أسلمتم عليه من الحلف وكل حلف كان في الجاهلية لا يزيده الإسلام إلا شدا).

قال أبو سفيان: معاذ الله. نحن على عهدنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغير ولا نبدل.

قال رسول الله: فنحن على مدتنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغير ولا نبدل. فأعاد أبو سفيان القول. ولم يرد رسول الله.

وذهب أبو سفيان إلى أبي بكر ليكلم رسول الله ليجير بين الناس قال أبو بكر: جواري في جوار رسول الله. فذهب إلى عمر فاستنكر طلبه. فأتى عثمان فقال عثمان: جواري جوار رسول الله. فذهب إلى علي يقول: إنك أمس القوم بي رحما فاشفع لي إلى محمد.

قال علي: يا أبا سفيان والله لقد عزم رسول الله على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه. فطاف بأشراف قريش الذين هاجروا إلى المدينة، وبالأنصار، وذهب إلى فاطمة الزهراء يلتمس منها أن تجير أو تكلف ابنها الحسن أن يجير.

قالت: والله ما بلغ ابني ذلك أن يجير بين الناس وما يجير أحد على رسول الله.

قال أبو سفيان لعلي: يا أب الحسن انصحني.

قال علي: والله ما أعلم شيئا يغني عنك شيئا. ولكنك سيد بني كنانة قم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك.

فقصد أبو سفيان إلى المسجد فقال: أيها الناس إني قد أجرت بين الناس.

وقال لرسول الله: يا محمد إني قد أجرت بين الناس.

قال عليه الصلاة والسلام: (أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة).

ورجع أبو سفيان إلى مكة بعد أن طال بالمدينة مقامه حتى ظن أهل مكة أنه أسلم.

شاور رسول الله أبا بكر وعمر. قال أبو بكر: هم قومك. وقال عمر: هم رأس الكفر.

ولما استقر الأمر قال لعائشة: (جهزينا وأخفي أمرك) وأمر جماعة أن تقيم بالطرق، فكان عمر يمر عليهم فيقول: لا تدعوا أحدا يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه. ودعا ﷺ اللهم خذ على أبصارهم حتى لا يروني إلا بغتة).

* * *

وفي العاشر من رمضان لسنة ثمان تحرك جيش المدينة وانضمت إليه القبائل فصار عشرة آلاف يقدمها الزبير بن العوام في مائتي فارس وأفطر عليه السلام في الطريق ليراه الناس.

وسار الجيش أياما ونظر الرسول ﷺ كلبة تهر بين أولادها وهن يرضعنها فأمر جعيل بن سراقة أن يقوم بحذائها حتى لا يعرض أحد من الجيش لها أو لجرائها.

وعثروا في الطريق على عين (جاسوس) لقبيلة هوازن أخبرهم أنها تجمع الجموع لتحارب المسلمين فأمر خالد بن الوليد بحبسه في الجيش حتى لا تعلم أخبارهم قريش أو هوازن.

وبلغه ﷺ أن الذين لم يفطروا شق عليهم الصيام فدعا بإناء من لبن أو ماء فوضعه على راحلته ليراه الناس فشرب وناوله رجلا بجانبه فشرب. وقال ﷺ عمن ظل على صيامه: أولئك العصاة.. أولئك العصاة..

وبلغ مر الظهران على مشارف مكة عشاء بعد أيام. فأمر أن يوقدوا عشرة آلا فنار. جعل على الحرس عمر بن الخطاب وقال: (إن قريشا سيأتون بأرحامهم وإنكم لاقون بعضهم فإن لقيتم أبا سفيان فلا تقتلوه).

وعثروا فعلا على أبي سفيان يتحسس الأخبار في الطريق فأخذوه وأخبروا به عمر فلم يلقه، بل أمر بحبسه حتى الصباح ومعه اثنان، فطلب أبو سفيان العباس بن عبد المطلب فجاء فأجارهم حتى لقى به النبي في الصباح.

قال رسول الله: (يا أبا سفيان أما آن لك أن تشهد أن لا إله إلا الله؟)

قال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأعظم عفوك. إنه لو كان مع الله إله ما أغنى عني شيئا. لقد استنصرت إلهي واستنصرت إلهك فوالله ما لقيتك مرة إلا نصرت علي.

قال رسول الله: (ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟).

قال أبو سفيان: أما هذه فإن في النفس منها شيئا حتى الآن.

قال العباس: (ويحك أسلم قبل أن تضرب عنقك).

فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

قال العباس: يا رسول الله إن أبا سفيان يحب الفخر فاجعل له شيئا.

قال رسول الله: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن.

وبهذا اعتبرت مكة "بلدة مؤمنة" لم تؤخذ (عنوة) مع أنها فتحت بالجند والخيل. وأمر رسول الله أن يوقف أبو سفيان بحيث تمر الجيوش أماه.. فقال للعباس وهي تمر: ما لأحد بهؤلاء قبل.. لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما.

قال العباس يا أبا سفيان إنها النبوة.

وأسرع أبو سفيان إلى مكة ينذر قومه.

وكان العباس قد هاجر مسلما إلى المدينة فلقى الجيش قادما منها فبعث إليها أهله ومتاعه ورافق الجيش.

ولقى رسول الله في بعض الطريق قرب مكة ابن عمه أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة أخا أم المؤمنين أم سلمة فأعرض عنهما. فلما استأذنا عليه فلم يأذن كلمته أم المؤمنين – وقد اصطحبها وأم المؤمنين ميمونة – قالت: لا يكون ابن عمك وأخي أشقى الناس بك فقد جاءا مسلمين. فأذن لهما وقبل إسلامهما.

فانظر تقديمها لابن عمه على أخيها.

أما علي فأخذ بيد ابن عمه وهو شاعر قريش، وزميل رسول الله في الرضاعة من حليمة السعيدة، وميلهما عمهما حمزة، ومن ثمة كان غضب رسول الله عليه شديدا.. لكن عليا علمه كيف يلقى رسول الله فقال له: إيت رسول الله من قبل وجهه فقال له ما قال إخوة يوسف ليوسف: {تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين} سورة يوسف ٩١ – فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولا – ففعل. وأجابه ﷺ: {لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين} سورة يوسف ٩٢ – وهكذا أسعف القرآن سفيان وحسن إسلامه وكان من أبطال يوم حنين إلى جواره عليه الصلاة والسلام.

دخول مكة:

وضربت له ﷺ قبة وغرزت رايته بالحجون على مقربة من قبري خديجة وأبي طالب ونزل بالقبة ولم ينزل ببيت بمكة بل كان ينزل من قبته إلى المسجد للصلاة. ولم يسترجع المهاجرون بيوتهم فقد هاجروا إلى الله ورسوله.

ودخلت الجيوش مكة دون حرب صبح العشرين من رمضان إلا ما كان من جيش خالد إذ قاومه جمع فيه عكرمة وصفوان وسهيل عند جبل الخندمة فقتل من أتباعهم ثلاثة عشر.

أما رسول الله فدخل مكة وقد طأطأ رأسه حتى كادت تمس رحله تواضعا لله وكان يقرأ سورة الفتح وأبو بكر إلى جواره.

وطاف النبي بالكعبة ودخلها ومعه أسامة بن زيد وبلال. وصلى داخلها ركعتين وأمر بكل الأصنام حولها فكسرت وكانت ثلاثمائة وستين وهو يقول: (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) وأذن بلال فوق الكعبة.

وفيما كان عليه الصلاة والسلام يطوف بالبيت عزم فضالة بن عمير الليثي أن يقتله. وأدرك رسول الله ما بنفسه فبادره بقوله: (أفضالة؟) قال: نعم قال ﷺ: (ماذا كنت تحدث به نفسك؟) قال: لا شئ كنت أذكر الله. فضحك رسول الله ثم قال: (استغفر) ثم وضع يده على صدره فسكن. فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما خلق الله من شئ أحب إلي منه. ورجع فضالة مسلما إلى أهله.

ولما خلا ﷺ من طوافه أتى الصفا فعلاه حتى يرى البيت ورفع يديه وجعل يحمد الله ويدعو ما شاء الله أن يدعو. وصلى في الكعبة ركعتين وخرج منها واستقبلها وصلى ركعتين وقال: هذه القبلة.

خطبة النبي عليه الصلاة والسلام:

وخطب الناس في اليوم الثالث للفتح وأهل مكة جلوس وهو واقف بباب الكعبة:

(الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده يا معشر قريش ماذا تقولون ما ذا تظنون؟)

وأجاب سهيل بن عمرو: أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت. إن عذبتنا فبجرم عظيم وإن عفوت فبحلم قديم.

فتبسم ﷺ في وجوههم وقال: فإني أقول كما قال أخي يوسف (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين. اذهبوا فأنتم الطلقاء).

وكأنما نشروا من القبور.

ثم خطب الناس وربيعة بن أمية بن خلف تحت صدر راحلته يبلغ ما يخطب فكان مما قال: (ألا إن كل ربا في الجاهلية أو دم أو مأثرة أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين وأول دم أضعه دم

ابن ربيعة بن الحارث[٨٠] إلا سدانة البيت وسقاية الحاج. ألا في قتيل العصا والسوط والخطأ شبه العمد الدية مغلظة، مائة ناقلة منها أربعون في بطنها أولادها. ألا وإن الله تعالى قد أذهب عنكم نخو الجاهلية وتكبرها بآبائها. كلكم لآدم وآدم من تراب. ثم تلا هذه الآية:

{يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير}[٨١].

يا أيها الناس، الناس رجلان. فبر تقي كريم، وكافر شقي هين على الله. ألا إن الله تعالى حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ووضع هذين الأخشبين فهي حرام بحرام الله لم تحل لأحد كان قبلي. ولن تحل لأحد كان بعدي ولم تحل لي إلا ساعة من نهار – يقصرها بيده ﷺ – ولا ينفر جيدها ولا يعضد عضاها[٨٢] ولا تحل لقطتها إلا لمنشد ولا يختلى[٨٣] خلاها).

فقال العباس إلا الإذخر[٨٤] يا رسول الله فإنه لا بد لنا منه للقين[٨٥] وظهور البيوت).

فسكت رسول الله ساعة (هنيهة) ثم قال: (إلا الإذخر فإنه حلال. ولا وصية لوارث وإن الولد للفراش وللعاهر الحجر. ولا يحل لامرأة أن تعطي امرءا من مال زوجها إلا بإذن زوجها.

والمسلم أخوا لمسلم والمسلمون إخوة والمسلمون يد واحدة على من سواهم تتكافأ دماؤهم وهم يرد عليهم أقصاهم ويعقل عليهم أدناهم ومشدهم على مضعفهم ومثريهم على قاعدهم. ولا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهده ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين ولا جلب ولا جنب[٨٦] ولا تؤخذ صدقات المسلمين إلا في بيوتهم وأفنيتهم. ولا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها. والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر. ولا تسافر امرأة مسيرة ثلاث إلا مع محرم. ولا صلاة بعد

---

(٨٠) ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وهو ابن عم رسول الله ﷺ.

(٨١) الحجرات ١٣.

(٨٢) يقطع شوكها.

(٨٣) يقطع الرطب من الحشيش.

(٨٤) نبات إذا خف ابيض.

(٨٥) الصناع.

(٨٦) لا تجلب الماشية ولا تخرج من مكانها لأخذ زكاتها.

العصر وبعد الصبح. وأنهاكم عن صيام يومين يوم الأضحى ويوم الفطر وعن لبستين ألا يحتبى أحدكم في ثوب واحد يفضي بعورته إلى السماء وألا تشتمل الصماء).

فقام رجل فقال: يا رسول الله قد عاهرت في الجاهلية فقال ﷺ (من عاهر بامرأة لا يملكها أو أمة قوم لا يملكها ثم ادعى ولده بعد ذلك فإنه لا يجوز له. ولا يرث ولا يورث. ولا أخالكم إلا عرفتموها يا معشر المسلمين. كفوا السلاح إلا خزاعة عن بني بكر من ضحوة نهار الفتح إلى صلاة العصر).

فخطبوهم ساعة وهي الساعة التي أحلت لرسول الله.

ثم قال لهم (كفوا السلاح) فقام أبو شاة فقال: اكتب لي يا رسول الله فقال: (اكتبوا لأبي شاة. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم).

وسلم مفتاح الكعبة لعثمان بن طلحة وقال له: (ألم يكن الذي قلت لك؟) قال عثمان فيما بعد: لقد أقبل ﷺ يوما قبل الهجرة يريد مفتاح الكعبة فأغلظت له فحلم عني وقال: (يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يوما بيدي أضعه حيث شئت).

قلق الأنصار:

وشهد الأنصار تعلقه بالبيت الحرام والقرية المباركة (مكة) فقال بعض فيما بينهم: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته. فلم يكد يفرغ من دعائه حتى قال: (يا معشر الأنصار) قالوا لبيك يا رسول الله.

قال: (فما أسمى إذن؟ كلا إني عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم المحيا محياكم والممات مماتكم).

فأقبلوا يبكون ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضن بالله ورسوله.

قال عليه الصلاة والسلام: (فإن الله ورسوله يعذرانكم ويصدقانكم).

وأسلم أهل مكة إلا قليلين سيسلمون بعد أيام. فأخذ البيعة على الرجال ثم أخذها على النساء دون أن يلمس أيديهن. وسأل عن ولدي عمه أبي لهب فجاء العباس بهما فأسلما وقال للعباس إني استوهبت ابني عمي هذين من ربي فوهبهما لي (عتبة ومعتب أما عتيبة فأكله الذئب في إحدى رحلاته للتجارة).

في جوار البيت الحرام:

وجاء شريكه في التجارة قبل بعثه ﷺ السائب بن أبي السائب المخزومي فحياه قائلا: (مرحبا بأخي وشريكي. كان لا يشاري ولا يماري. يا سائب قد كنت تعمل أعمالا في الجاهلية لا تتقبل منك وهي اليوم تتقبل منك).

وجاء الحارث بن هشام أخو أبي جهل وهو يستحي أن يراه رسول الله فأقبل عليه بالبشر، فوقف له حتى جاء فسلم عليه وكان معه عبد الله بن أبي ربيعة (بن المغيرة) المخزومي فأسلما.

وأرسل سهير بن عمرو ابنه عبد الله يسأل رسول الله: أنؤمنه؟ قال عليه السلام: نعم. فليظهر. وقال لمن حوله: (من لقى سهيل بن عمرو فلا يحد إليه النظر. فلعمري إن سهيلا له عقل وشرف وما مثل سهيل جهل الإسلام ولقد رأى ما كان يوضع فيه أنه لم يكن بنافع له) فقال سهيل لما أبلغه ابنه: كان والله برا صغيرا برا كبيرا. وصار سهيل يقبل ويدبر آمنا وخرج مع رسول الله إلى معركة (حنين) وهو مشرك.

وكان ﷺ قد أمر بقتل عكرمة بن أبي جهل فقد حارب الجيش ومكة مؤمنة. فهرب إلى البحر ليلقي فيه نفسه أو يموت تائها في البلاد وكانت زوجته أم حكيم بنت الحارث بن هشام ذات عقل فقالت: يا رسول الله: إن ابن عمي قد هرب يلقي نفسه في البحر فأمنه. قال عليه السلام: (هو آمن) فخرجت في طلبه فأدركته وقد انتهى إلى سفينة بالبحر فجاءت به، فلما وافى مكة قال رسول الله لمن حوله:

(يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمنا مهاجرا فلا تسبوا أباه فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت) ولما رآه رسول الله وثب إليه فرحا به.

قال عكرمة – وأم حكيم بجواره – إن هذه جاءتني بأمانك والله ما دعوت إلا إلى خير وأمر حسن جميل. وقد كنت فينا يا رسول الله قبل أن تدعونا إلى ما دعوتنا إليه، وأنت أصدقنا حديثا وأبرنا برا. فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. فسر النبي بذلك.

قال عكرمة: علمني خير شئ أقوله. قال: (تقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله).

قال عكرمة: ثم ماذا؟

قال رسول الله: (تقول أشهد. وأشهد أني مسلم مجاهد مهاجر).

وهرب صفوان بن أمية بن خلف ليركب البحر إلى اليمن أو ليقذف فيه نفسه فأخبروا به الرسول فقال (هو آمن) فلحقوا به فأبلغوه الأمان فلم يصدق حتى يعودوا إلى مكة فيرجعوا إليه بعلامة يعرفها.. فلما طلبوا إلى رسول الله ذلك نزع عمامته التي دخل بها مكة وشهدها كل الناس وسلمها لهم. فرجع صفوان لما رآها. ودخل المسجد ورسول الله يصلي بالناس فلما سلم قال صفوان وهو على بعيره: إن عمير بن وهب (حامل العلامة) جاءني ببردك يزعم أنك دعوتني للقدوم عليك، فإن رضيت أمرا وإلا سيرني شهرين. فقال ﷺ له: (انزل أبا وهب)قال صفوان: لا والله حتى تبين لي: قال عليه السلام: (بل لك تسيير أربعة أشهر) فنزل.

وسار مشركا مع النبي إلى هوازن بعد أيام ورمقه رسول الله وهو يحد النظر إلى واد ملآن نعما وشاء ورعاء فسأله: (أيعجبك هذا الشعب؟) قال: نعم قال: (هو لك) فقبض ما في الشعب وقال: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي؟ واسلم في مكانه، وكانت زوجته فاختة بنت الوليد قد أسلمت قبله وأقر رسول الله الزواج الأول كما أقر زواج عكرمة.

وأسلم سهيل بن عمرو كذلك.

ولما ارتدت العرب قام سهيل خطيبا في أهل مكة وقال: لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد. والله إن هذا الدين ليمتد امتداد الشمس والقمر من طلوعهما إلى غروبهما. كان دائم الحزن لما فرط منه في مجلس رسول الله يوم صلح الحديبية. وحارب في الشام حتى استشهد.

وأنفذ الرسول السرايا حول مكة ولم يأمرها بقتال، وكان خالد بن الوليد أميرا لإحداها فقتل قوما من بني جذيمة بن عامر لم يصدق قولهم إنهم قد أسلموا. ولما بلغ أمرهم رسول الله رفع يديه وقال: (اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد).

وأرسل علي بن أبي طالب بمال ودى قتلاهم، ورد إليهم ما أخذ منهم وقال لهم: انظروا إن فقدتم عقالا لأديته فبهذا أمرني رسول الله ﷺ.

أما عكرمة فاستعمله على صدقات هوازن عام حج سنة عشر، وسيستعمله أبو بكر على جيش إلى عمان عندما ارتد العرب، ثم يوجهه إلى الشام بجيشه فيمر بالمدينة،ويخرج أبو بكر لتحيته، ويعرض عليه الأموال، فيقول: لا إن معي ألف دينار (يعين بها الجيش).

قيل استشهد عكرمة بأجنادين، وقيل باليرموك وقد تبايع على الموت مع أربعمائة شهيد من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا قدام فسطاط خالد حتى قتلوا إلا واحدا.

قيل لعكرمة والأسنة تعتوره من كل صوب:اتق الله في نفسك. قال: كنت أجاهد بنفسي عن اللات والعزى فأبذلها لها: أفأستبقيها الآن عن الله ورسوله؟ لا والله أبدا.

وأمر عليه الصلاة والسلام بقتل بضعة أنفس من أهل مكة إما لردتهم عن الإسلام أو لارتكابهم جريمة تستحق القتل، ولما جاءه وحشي قاتل حمزة مسلما قبل إسلامه وقال له: غيب عني وجهك، ومنهم هند بنت عتبة بن ربيعة زوجة أبي سفيان التي لاكت كبد حمزة بعد أن استشهد، وكان لها في بدر أب وأخ وعم بين القتلى، فتنقبت واختفت بين النساء فبايعته بينهن على الإسلام، وسيكون ابنها معاوية أول من ولي أمر المسلمين بعد الخلفاء الراشدين إذ صالح الحسن بن علي، وفي عهد معاوية انتصر المسلمون في آسيا وإفريقية في البر والبحر.

ثم جاء هبار بن الأسود الذي نخس جمل زينب بنت رسول الله وهي خارجة من مكة إلى المدينة فأجهضت – وكان النبي أمر بقتله. قال هبار: السلام عليك يا نبي الله.أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. والله لقد هربت منك البلاد فأردت اللحوق بالأعاجم ثم ذكرت عائدتك وفضلك وصفحك عمن جهل عليك. وكنا يا نبي الله أهل شرك فهدانا الله بك وأنقذنا بك من الهلكة. فاصفح عن جهلي وعما كان يبلغك عني فإني مقر بسوء فعلي معترف بذنبي. قال رسول الله: (قد عفوت عنك وقد أحسن الله إليك إذ هداك إلى الإسلام والإسلام يجب ما قبله).

أقام ﷺ بمكة تسعة عشر يوما يقصر فيها الصلاة – لأنها غير دار إقامة له – وولي عليها عتاب بن أسيد وهو شاب فجعل رزقه درهما في اليوم. فكان عتاب يقول: لا أشبع الله بطنا جاع على درهم كل يوم.

٥- يوم حنين والمغانم الكثيرة

أسلفنا أن الجيش في طريقه إلى مكة عثر على عين لهوازن أخبر المسلمين أنها تجمع الجموع لحربهم وانضمت ثقيف إلى هوازن فالقبيلتان أبناء عمومة. فبلغ مقدار الجموع عشرين ألف محارب تنصب إليهم أمداد العرب يقودها مالك بن عوف زعيم هوازن، فأمر أن تصطحب هوازن نساءها وأبناءها وأموالها لتستميت في الدفاع عنها. وانتهوا بكل ذلك إلى "أوطاس".

أما رسول الله فاستعار دروعا من صفوان بن أمية قيل إنها أربعمائة، ورماحا من نوفل بن الحارث بن عبد المطلب قيل إنها ثلاثة آلاف، وبعث عينا له يقيم بين القوم.

وخرج يوم السبت لست خلون من شوال في عشرة آلاف هي التي فتحت مكة. وفيها كتيبة الأنصار الشهيرة وكانت أربعة آلاف كاملة العدة والأهبة، وفي الجيش صفوان وهو مشرك، وزوج صفوان وهي مسلمة. وتبع الجيش نحو ألفين من "العامة" من أهل مكة.

وأقبلت هوازن عن بكرة أبيها بنسائها وولدانها وأموالها فتبسم رسول الله وقال: (تلك غنيمة للمسلمين غدا إن شاء الله) فذلك يدخل تحت قوله تعالى في سورة الفتح: {مغانم كثيرة تأخذونها} عجل قبلها غنائم خيبر.

ونزل ﷺ تحت شجرة علق عليها قوسه وسيفه فجاء رجل فأمسك السيف وسله فانتبه الرسول إليه وهو نائم فاستيقظ. قال الرجل: من يمنعك من؟ قال: "الله تعالى" وبهت الذي كفر.

ونادى رسول الله صاحبه أبا بردة وأنبأه بما صنع الرجل فاستل سيفه فقال الرسول: (يا أبا بردة إن الله مانعي وحافظي حتى يظهر دينه على الدين كله).

وفي السحر عبأ النبي ﷺ الجيش صفوفا ولبس درعين والمغفر والبيضة وركب البغلة فحض الصفوف على القتال وبشرهم بالفتح. وقدم خالد بن الوليد في بني سليم وهم ألف كاملة سار وراءها أهل مكة. وانحدروا إلى واد أجوف في غبش الظلمة قبل ظهور النهار، فوجدوا هوازن قد تمكنت من شعابه وأجنابه ومضايقه. فما راع المسلمين وهم ينحطون في الوادي إلا كتائب المشركين تشد عليهم شدة واحدة من كل جانب، وسواد كثير يعتورهم، فحسبه المسلمون رجالا وما كان إلا النساء والأولاد والأنعام التي ساقتها هوازن من إبل وبقر، فانكشفت أوائل خيل بني سليم خوفا من الأشباح، وتبعتها أخلاط أهل مكة، واختلطت الصفوف، وتراجع المحاربون، وارتفع النقع فلم يعد أحد يبصر كفه.

ونادى رسول الله: (أيها الناس هلم إلي، أيها الناس هلم إلي. أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله) وجعل قوم ينادون (يا للأنصار).

ورسول الله يعدو ببغلته قبل الكفار وعمه العباس ممسك بلجامها وأبو سفيان بن الحارث ابن عم رسول الله يقودها والرسول يناشد ربه وعده: (اللهم إني أنشدك ما وعدتني اللهم لا ينبغي لهم أن يظهروا علينا).

وأمر العباس أن ينادي بأعلى صوته وكان جهوريا: يا معشر الأنصار يا أصحاب السمرة (الشجرة) يا أصحاب سورة البقرة. فانعطفوا راجعين إلى رسول الله يقولون: لبيك لبيك. ونظر إليهم رسول الله وهم يجتلدون، فأخذ حصوات فرمى بها في وجه الكفار، فأدبر أمرهم وتدافع جيش المسلمين يمزقهم.

وأفاء الله على المسلمين أموالهم ونساءهم وأبناءهم وكأنما جمعوها بأيديهم لتكون فيئا وسبيا لا يتكلف المسلمون جمعه، وليؤيدوا رسول الله فيما نبأ به البارحة.

كان الذين ثبتوا للصدمة الأولى حول رسول الله عمه وابني عمه (العباس وعليا وأبا سفيان بن الحارث) وأبا بكر وعمر وأسامة وأيمن وعبد الله بن مسعود وكان في المائة الأولى أهله وفيهم عتبة ومعتب ابنا عمه أبي لهب وربيعة ونوفل ابنا عمه الحارث بن عبد المطلب وابنا عميه عقيل بن أبي طالب وعبد الله بن الزبير بن عبد المطلب ومن الأنصار ونساء الأنصار المحاربات ستة وستون، ومن المهاجرين بقية المائة والرسول تمامها. وكان في الأنصار أم سليم وأم عمارة (نسيبة) وأم الحارث وأم سليط. حاربت أولاهن وهي حامل، وأسقطت الثانية مشركا وحملت سيفه.

وأجمعوا أن الوثبة التي وثبتها هوازن لم تلبث إلا قدر حلب ناقة.

وكان في عامة أهل مكة شيبة بن عثمان وهو لم يسلم بعد، وهو يتذكر أباه وقد قتل ببدر وعمه وقد قتله علي فقال لنفسه: اليوم أدرك ثأري وثأر قريش كلها، فكان يجئ عن يمين بلغة الرسول فيجد العباس، ويجئ من يسارها فيجد أبا سفيان بن الحارث، فجاء رسول الله من الخلف وهم برفع السيف فلمع أمامه شواظ من نار كأنه برق فوضع يده على عينه من فزعه. فالتفت إليه رسول الله وقال: (يا شيب ادن مني) فدنا فوضع ﷺ يده على صدره وقال: (اللهم أذهب عنه الشيطان).

ويقول شيبة: فرفعت إليه رأسي وهو أحب إلي من سمعي فرفعت إليه رأسي وهو أحب إلي من سمعي وبصري وقلبي. ثم قال: (يا شيبة قاتل الكفار) فتقدمت أقيه بنفسي كل شئ. فلما انهزمت هوان رجع ﷺ إلى منزله ودخلت عليه فقال: (الحمد لله الذي أراد بك خيرا مما أردت) ثم حدثني بما هممت به.

وأي شجاعة جنان وتوازن ورحمة بمن يستحق ومن لا يستحق حيث الرءوس تساقط وأحقها بالسقوط رأس غادر! إنما هي الثقة بالنصر الذي وعد الله به يحيى بها كل نفس. فهذه خصيصة النبي ﷺ.

وأتبع المسلمون المنهزمين في كل وجه وفر مالك بن عوف فلم يتوقف إلا عند حصون ثقيف بالطائف على مبعدتة عشرات الأميال.

وتشاء السماء أن تجئ الشيماء – بنت حليمة السعدية – أخاه من الرضاع في أعقاب هذه الملحمة كأنها ريح رحمة. فبسط لها عليه الصلاة والسلام رداءه ودمعت عيناه وسألها عن أمها وأبيها، وأخبرته بموتهما فقال لها: (إن أ؛بيت فأقيمي عندنا محببة مكرمة وإن أ؛بيت أن ترجعي إلى قومك وصلتك ورجعت إلى قومك) قالت: بل أرجع. وأسلمت. فأمر أن ترجع إلى حيث سبي هوازن وأموالها في الجعرانة.

فلما رجعت إلى الجعرانة كانا في ركبها مجرم حرب قطع أعضاء مسلم وحرقه بالنار فكلمته ﷺ في أن يهبه لها، فوهبها، ووصلها.

واستشهد ممن كانوا حول رسول الله أيمن بن عبيد الله الخزرجي بن أم أيمن أما خالد بن الوليد فجرح ومشى رسول الله يبحث عنه حتى وجده مستندات إلى مؤخرة رحله.

وفي هذه المعركة كرر رسول الله أن: (من قتل قتيلا فله سلبه) وقتل أبو طلحة (زوج أم سليم) عشرين رجلا وأخذ أسلابهم.

وأخذ رسول الله يومئذ وبرة من بعير فقال: (يا أيها الناس إني لا يحل لي مما أفاء الله عليكم قدر هذه إلا الخمس، والخمس مردود عليكم. فأدوا الخيط والمخيط وإياكم والغلول فإنه عار على أهله يوم القيامة) وكان عقيل بن أبي طالب قد أصاب إبرة من الغنائم أعطاها لامرأته فلما سمع الحديث رجع يقول لها: والله ما أرى إبرتك إلا قد ذهبت عنك. فأخذها فألقاها في الغنائم.

وكان السبي عظيما والغنائم جديرة بالتنظيم فهذه أكبر غنائم في معارك النبي ﷺ (السبي ستة آلاف نفس.والإبل أربعة وعشرون ألفا. والغنم أكثر من أربعين ألفا. والفضة أربعة آلاف أوقية) فأمر أن يحبس كل ذلك في الجعرانة حتى يعود من ملاحقة الفارين إلى ثقيف.

وفي مواقف حنين المتتابعة نزلت الآيات ٢٥ – ٢٦ – ٢٧ من سورة التوبة تكلم عن إعجاب المسلمين بكثرتهم: {لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين. ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين. ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم}.

هكذا لم تعتبر السماء الساعة الأولى من يوم حنين هزيمة ولامت الذين أعجبتهم كثرتهم، مثلما لم تعتبر يوم أحد هزيمة وإنما لامت من عصوا الله ورسوله، فالنصر قدر قدره الله لرسوله. وهو دائما يتحقق.

* * *

افتتح القرآن ذكر الحروب التي حارب فيها رسول الله بغزوة بدر وختمها بغزوة حنين، ولهذا تقترن الغزوتان في الذكر فيقال بدر وحنين ففيهما قاتل الله بالملائكة أو الجند مع المسلمين. وفي الأولى انكسر المشركون وفي الثانية انتهوا إلى غير رجعة.

وفي الأولى علا ذكر المدينة وفي الثانية سلمت مكة.

ولما لبس رسول الله درعين في حنين بعد أن أنزل الله تعالى قوله في سورة المائدة ٦٧: {يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين} كان يعلم أمته أن تأخذ بالأسباب. فإنه وقد عصمه الله من الناس يعد العدة ويجاهد أعظم الجهاد، ولا يقعد في انتظار النصر وإن ساعدته الملائكة أو جند الله. وإنما ينصر الله من ينصره.

والنصر حق يناله من يعمل له.

وتعلم خالد، وهو الذي لا يسير بل ولا ينام إلا على تعبئة، ألا يقبل في جوار المحاربين قوما – أخلاطا – جاءوا لينالوا غنيمة.

حصار ثقيف:

وأتبع الرسول أهل ثقيف فقدم خالدا في جنده. فحذر خالد أهل الحصون من يوم كيوم قريظة. وطلب أن يفاوضوه فرفضوا. وطلب أن يبارزوه فرفضوا. وقالوا: إن في حصنهم ما يكفيهم سنين. وترامواً بالنبل واستشهد من المسلمين اثنا عشر شهيدا.

ونادى منادي رسول الله أن من خرج من الحصن من العبيد فهو حر – فهو لا ينسى التحرير ورحى الحرب تدور – فخرج من الحصن بضعة عشر فأعتقهم وأمر صحبه أن يعلموهم القرآن والسنن. ولما أسلمت ثقيف تكلم أشرافها لاستردادهم فقال رسول الله: (أولئك عتقاء الله لا سبيل إليهم).

ورمى المسلمون الحصن بالمنجنيق وصنعوا دبابتين من جلود البقر لينفذوا إلى جدار الحصن فيحفروه فحرقت الدبابة بحديدة محماة. واستمر الحصار بضعا وعشرين ليلة.

وأخيرا قيل لرسول الله: هذا ثعلب في جحر إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك.. فأمر عمر فأذن بالرحيل ودعا لهم عندما طلب إليه الدعاء عليهم فقال: (اللهم اهدهم واكفنا مؤنتهم) فجاءوه العام القادم مهتدين.

وانحدر عليه الصلاة والسلام بالجيش من جبال الطائف ميمما الجعرانة على عشرة أميال من مكة. وبصر بسراقة بن مالك بن جعشم والناس ينحونه عن طريق الكتائب المنحدرة حتى إذا وقعت عيناه على رسول الله حمل بين إصبعيه الكتاب الذي كتبه له أبو بكر في طريق الهجرة إلى المدينة من مكة ورفع يديه ونادى: أنا سراقة بن جعشم وهذا كتابي. وأجابه رسول الله: (هذا يوم وفاء وبر) وأمر فأدنوه فسلمه الكتاب. ولم يذكر سراقة إلا سؤالا في الرحمة قال: يا رسول الله أرأيت الضالة من الإبل تغشى حياضي وقد ملأتها لإبلي هل لي من أجر إن سقيتها؟ فأجابه (نعم في كل ذات كبد حرى أجر).

من المغانم الكثيرة:

استأنى رسول الله بضعة عشر ليلة بالسبي والغنائم ينتظر قدوم هوازن ليسربلها ببره فجاء منهم أربعة عشر، مسلمين، يقولون: يا رسول الله إن في الحظائر من السبايا عماتك وخالاتك من الرضاع وحواضنك اللاتي كن يكفلنك وأنت يا رسول الله خير المكفولين.

قال عليه الصلاة والسلام: (ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم).

وقالت قريش: ما كان لنا فهو لله ولرسوله.

ثم قال: (نساؤكم وأبناؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟)

قالوا: بل أبناؤها ونساؤنا أحب إلينا ولا نتكلم في شاة ولا بعير.

قال: (أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم. وإذا أنا صليت بالناس فأظهروا إسلامكم وقولوا: إنا إخوانكم في الدين وإنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله فإني سأعطيكم ذلك وأسأل لكم الناس).

وعلمهم رسول الله التشهد وكيف يكلمون الناس. فلما صلى الظهر بالناس استأذنوا في الكلام ورغبوا في رد سبيهم. وقام رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه وقال: (أما بعد فإن إخوانكم قد جاءوا تائبين، وإني قد رأيت أن أرد عليهم سبيهم فمن أحب أن يطيب ذلك فليفعل. ومن أحب أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول فئ يفيئه الله علينا فليفعل).

قال المهاجرون والأنصار ما كان لنا فلله ورسوله وتبعهم الباقون إلا عيينة بن حصن الفزاري (الأحمق المطاع) اختار عجوزا وأبى أن يردها طمعا في أن يفديها أهل وعشيرة وبنون وحفدة فيغلوا ثمنها.. ومضى عليها الزمان حتى قالوا إنه ردها بلا شئ!

وعلقت الأعراب برسول الله يسألونه حتى اضطروه إلى شجرة خطفت رداءه فوقف يقول للأعراب: (أعطوني ردائي فلو كان لي عدد هذه العضاة (شجر) نعما لقسمته عليكم ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جبانا).

وأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة ثم قال: مر لي من مال الله الذي عندك. فالتفت إليه رسول الله وهو يضحك ثم أمر له بغطاء ورداء.

ثم سألهم عن مالك بن عوف فقالوا: لحق بثقيف. قال عليه السلام: (أخبروه أنه إن أتاني مسلما رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل) ووقف مال مالك فلم يدخله في الغنائم وحبس أهله بمكة عند عمتهم أم عبد الله بنت أبي أمية... فخرج مالك ليلا من حصن ثقيف وأدرك رسول الله بالجعرانة فأسلم. واستعمله رسول الله على هوازن وما حولها فأصبح يغير على ثقيف ويبعث إلى رسول الله الخمس، وأغار مرة على سرح فاستاق ألف شاة في غداة واحدة.

وجمعت غنائم هوازن بين يدي رسول الله فقال أبو سفيان بن حرب يا رسول الله لقد أصبحت أكثر قريش مالا. فتبسم رسول الله وزع كل هذا المال.

تأليف القلوب:

بدأ بالخمس الذي لله ورسوله فوزعه فيمن يريد تأليف قلوبهم مسلمين وغير مسلمين، وآخرين من المترددين، فدخل غير المسلمين في الدين. وكان من تألفهم بضعة وخمسين إليك أمثالا منهم وغنائمهم لترى كيف أعطى وأغنى:

كان الأقرع بن حابس مترددا في ترك السبي فأعطاه رسول الله من الإبل مائة، وكان عيينة بن حصن حريصا على العجوز فتركها له وأضاف إليها من الإبل مائة. وكان أبو سفيان ومعاوية ويزيد ابناه من مسلمة الفتح، فأعطى كل واحد مائة، وزاد أبو سفيان أربعين أوقية من الفضة، وأعطى سهيل بن عمرو مائة وأعطى أخاه مائة.

وكان حكيم بن حزام من مسلمة الفتح أعطاه مائة فطلب منه المزيد فلم يضن بمزيد فأعطاه مائة فطلب المزيد فزاده لكنه وعظه كما أسلفنا في الباب الثاني. وأحدث الوعظ أثره.

قال حكيم: والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدا بعدك شيئا. فكان عمر بن الخطاب، وقد أقبلت الدنيا في خلافته، يدعوه إلى عطائه فيأبى أن يأخذه فينادي عمر: أيها الناس أشهدكم على حكيم بن حزام أدعوه إلى عطائه فيأبى أن يأخذه. وأعطى صفوان بن أمية فكان يقول: إن رسول الله ما زال يعطيني من غنائم حنين وهو أبغض الخلق إلي حتى ما خلق الله تعالى شيئا هو أحب إلي منه.

ثم أمر بالغنائم فأحضرت فكان لكل رجل أربع من الإبل أو أربعون شاة، فإن كان فارسا أخذ اثنتى عشرة من الإبل أو عشرين ومائة شاة فلصاحب الفرس سهم وللفرس سهمان.

وأعطى قوما ومنع آخرين وقال: (إني لأعطي أقواما أخاف هلعهم وجزعهم وأكل أقواما إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى منهم عمرو بن تغلب).

قال عمرو: فما أحببت أن لي بكلمة رسول الله ﷺ حمر النعم.

وفي حديث لسعد بن أبي وقاص: (إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه خشية أن يكبه الله تعالى في النار على وجهه) بل قال له سعد بن أبي وقاص: يا رسول الله أعطيت عيينة بن حصن والأقرع بن حابس وتركت جعيل بن سراقة الضمري!

فقال ﷺ (أما والذي نفس محمد بيده لجعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض. (ما يطلع من باطن الأرض ويسيل) كلهم مثل عيينة بن حصن والأقرع بن حابس ولكني تألفتهما ليسلما ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلام).

وجعيل، وهذا شأنه، هو الذي عهد إليه نبي الرحمة في حماية الكلبة من الجيش في طريقه إلى مكة.

موقف جليل للأنصار:

لم يفطن لفحوى تأليف القلوب يومئذ بعض شباب الأنصار فقالوا: يعطي قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم!

وعجل زعيم الأنصار سعد بن عبادة بهذه الكلمة إلى رسول الله فقال: يا رسول الله إن هذا الحي قد وجدوا عليك في أنفسهم.

قال: (فيم)؟

قال: فيما كان من قسمك هذه الغنائم في قومك وسائر العرب ولم يكن فيهم من ذلك شئ.

قال رسول الله ﷺ فيم أنت من ذلك يا سعد؟

قال سعد: ما أنا إلا امرؤ من قومي.

قال رسول الله: (فاجمع لي قومك في هذه القبة فإذا اجتمعوا فأعلمني).

فاجتمعوا فأتاهم فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: (يا معشر الأنصار. ألم آتكم ضلالا فهداكم الله تعالى، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف بين قلوبكم؟

قالوا: بلى يا رسول الله. الله ورسوله أمن وأفضل.

قال: (والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصدقتم جئنا طريدا فآويناك، وعائلا فآسيناك، وخائفا فآويناك، ومخذولا فنصرناك).

قالوا: المن لله تعالى ولرسوله.

قال: (وما حديث بلغني عنكم؟) فسكتوا.

قال فقهاؤهم: أما رؤساؤنا فلم يقولوا شيئا وأما أناس منا حديثة أسنانهم فقالوا يغفر الله تعالى لرسوله ﷺ يعطي قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم!

قال: (إن قريشا حديثو عهد بجاهلية وعصبية وإني أردت أن أجبرهم وأتألفهم. أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة[٨٧] من الدنيا تألفت بها قوما أسلموا ووكلتكم إلى ما قسم الله تعالى تعالى لكم من الإسلام. أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحلهم بالشاة والبعير وتذهبوا برسول الله إلى رحالكم تحوزونه إلى بيوتكم. فوالله لمن تنقلبون به خير مما ينقلبون به، فوالذي نفسي بيده لو أن الناس سلكوا شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار. لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار).

فبكى الناس حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا بالله ورسوله حظا وقسما.

وتتجلى جدارة سعد بن عبادة بالزعامة في جوابه ما أنا إلا امرؤ من قومي. فهي مقالة زعيم يبلغ حاجة قومه ولا يتنصل منها، أو منهم. وظاهر من قول فقهائهم أنه لم يكن مما قالوه في شئ! ويتجلى في خطبة رسول الله تواضعه وبلوغه الغاية في هديه وكمال الإيمان في الأنصار شيبا وشبابا، ومعاجلته الخطأ ببيان وجه الحق فيه.

ويروي الواقدي أن رسول الله أراد أن يجعل (البحرين) ملكا لهم من بعده، وكانت أنفس ما فتحه الله على المسلمين في عهده، فقالوا: لا حاجة لنا بالدنيا بعدك يا رسول الله.

قال لهم: (إنكم ستجدون بعدي أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض).

ثم خرج عليه الصلاة والسلام من الجعرانة ليلا لاثنتى عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة فأحرم بعمرة ودخل مكة فطاف وسعى ماشيا وحلق ورجع إلى الجعرانة من ليلته. وكانت غيبته من حين خرج لفتح مكة حتى رجع إلى المدينة شهرين وستة عشر يوما وقيل ثمانين يوما.

---

(٨٧) بقلة خضراء شبه بها زهرة الدنيا.

٦- نحو العالم (غزوة تبوك)

إذا كان من السابقين من يرى أن رسول الله قاد أكبر جيش شهدته جزيرة العرب يوم غزوة تبوك ليجهض ما أعده الروم لغزو المدينة فحسب، فهذا رأي لا يبعد من ظاهر الأمر. فالفتح المبين الذي فتحه الله يوم الحديبية يشق طريقا معبدا للفتوح بعده، ولذلك بعث رسول الله كتبه إلى ملوك العرب وملوك العالم. ولقد أراه الله الفتوح العظمى وهو بين قومه يحفر الخندق. ولذلك أتبع كتبه إلى الملوك بالاتجاه نحو الحدود الشمالية بفتح خيبر سنة سبع = ٦٢٩م. ودانت له تيماء ووادي القرى وفدك في طريق الشام، ثم بعث سرية كعب بن عمير إلى ذات أطلاح بالشام في ربيع الأول سنة ثمان وأتبعها عظمى سراياه، إلى مؤتة في أدنى البلقاء دون دمشق قريبا من بيت المقدس في جمادى سنة ثمان.

وأتبع السريتين بثالثة عليها عمرو بن العاص أمدها بثمانين فيهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة في جمادى الآخرة سنة ثمان تستنفر العرب للخروج معها للشام، حيث قبيلة بلى وقبيلتا عذره وبلقين ومضاربها قريبة إلى بيت المقدس.

وفي ربيع الأول سنة تسع أرسل سرية عكاشة بن محصن إلى أرض عذرة وبلى، واستمر يعد لغزو الروم وهم المنتصرون على الفرس. حتى خرج في رجب سنة تسع، ومعه أم المؤمنين أم سلمة، على رأس ثلاثين ألفا أو أكثر للقاء الروم بالشام في تبوك.

وفي العودة بعث خالد بن الوليد إلى ملك دومة الجندل في سرية غزنة.

وسنرى خالدا ينتصر على جيوش الروم في اليرموك بعدد قيب من عدد جيش تبوك والروم أضعافه عددا وعدة.

كان هرقل يجمع الجموع فعلا لمواجهة القوة الصاعدة التي تخترق بلاده وتنفذ عقيدتها إلى بعض ولاته والخاضعين لنفوذه. فمن قبل خيبر قدم مسلما إلى رسول الله من أهل جزام رفاعة بن زيد الضبي. ومن بعده أسلم فروة بن عمرو الجزامى صاحب بلاد معان من أقاليم الشام فدعاه هرقل وحبسه وصلبه. فما بلغ رسول الله من جمع الروم له كان حقا. لكن هرقل قعد في "ممتنع بلاده" بعيدا عن التخوم.

وظل حكام الروم يراقبون المسلمين فالماضي الذي قضى الله بزواله يجاذب المستقبل الذي قدره ليتم نوره.

وسنراه عليه الصلاة والسلام بعد غزوة تبوك يؤمن الدولة في حدود الشام بمصالحة أهل (ايلة) وهي أقرب إلى دمشق ويعطيهم أمانا مع أهل أذرح وجربا ويصالح أهل مقنا على ربع ثمارهم وغزولهم.

وسنرى حاكم الروم بعد عودة رسول الله من تبوك لا يغفل عن مراقبة رسول الله وصحبه، حين قاطع رسول الله يوم رجوعه كعب بن مالك خمسين يوما، عجل عيون الروم في أثنائها بأنباء كعب ورجعوا برسالة من الحاكم تقول له: إن صاحبك جفاك... فإن تك متحولا فالحق بنا نواسيك..

وأحداث التاريخ تعلن الحقيقة الواقعة على يدي رسول الله ومن نفذوا وصاياه وإيماءاته من بعده. فغزوة تبوك كانت الخطوة "القدوة" للخروج بانتصارات الإسلام إلى العالم بتمامه.

والناظر إلى أعمال الرسول نظرته إلى تصرفات الرجال العاديين يتجاوز عددا من المسلمات وأولها أن لرسالة الإسلام حسباناتها. والنصر الذي وعد الله به رسوله وأمته كان نصرا لدينه على الدين كله. فلم تك خططه ﷺ لنشر الدين مرتجلة ولا هي خططه وحده. ومن الدلالات على ذلك إيماءاته للأمة باستخلاف أبي بكر ،وإعطاؤه لواء غزوة تبوك لأبي بكر بذاته، فهو الذي سيتولى مبادرة تجييش الجيوش لقمع الردة، ثم توجيهها للفتح، مجتمعة. ولما استشار رسول الله أيمضي في أرض الروم أم يتوقف استشار عمر فهو الذي سوف يتم ما بدأه أبو بكر.

والنظرة العجلى إلى خريطة العالم وتاريخه العسكري والفكري تريك تدبير السماء لتجميع قوى القبائل بعد حروب الردة في جيش عالمي له مهام في الشرق والغرب، كان نواة انطلاق الفتوحات في مهاب الرياح الأربعة من الأرض التي باركها الله عند بيته المحرم ليولي الجميع وجوههم شطره، ويبقوا جميعا ولا يتفرقوا. ومن هذا الموقع المبارك بقى الإسلام حزام أمان يمسك الأرض من منتصفها أن تميل، ويجذب أهلها للدخول فيه إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

لقد وضع عليه الصلاة والسلام أقدام أمته على الطريق، وعين لها أدلتها فقال: (خير القرون قرني "جيلي" ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) وصدق رسول الله. فهذه الأجيال الثلاثة ليست أورع أو أفقه أو أقوى القرون فحسب، وإنما هي الأجيال التي أخمدت قبل كل شئ ردة العرب وقامت بالفتوح الفكرية والعسكرية الكبرى وهي التي رسمت طريق الإسلام إلى العالم في قاراته المعروفة.

وكان من هديه عليه الصلاة والسلام أن تكشف أمته في حياته اقتدارها على حشد عشرات الآلاف – بعد إذ لم يبلغ جيش فتح مكة إلا عشرة واحدة في العام السابق! – فلم يعد الهدف من الفتح إقليميا بل أمسى عالميا، وإذا كان للحياة الإنسانية أجل محدود فليس للرسالة حدود.

جيش العسرة:

وللامبراطوريات سماعات في كل الاتجاهات وأرصاد في داخل القبائل على جانبي الحدود إلى بعيد.

من أجل ذلك حشد بجيش "العسرة" كما سماه الذين انخرطوا في سلكه ثلاثين ألفا، وأعلن في كل وجه عن حشده وأذاع بقصده، وهو لقاء الروم، لتطير أخباره إلى أبعد حد على غير عادته في الحشد من قبل. فلهذا الجيش مهمة متميزة في تاريخ العالم سواء أحارب أم سالم.

ولقد كان تمام إسلام جزيرة العرب من أول آثاره. فتوافدوا في أثناء عامين، إلا شيئا، هي الأيام الأخيرة من حياته ﷺ وفيهم وفد ثقيف جاء بإسلامها بعد العودة من تبوك.

كان الروم يكتنفون الحدود لكن لهم في داخل القبائل العربية قبائل متنصرة أهمها الغساسنة في الشمال بالشام وللروم نفوذ بالمسيحية سرى إلى اليمن في الجنوب وإلى الشرق في شمال العراق. ولما جاءت أنباء الشام بعزم هرقل على غزو المسلمين رأى رسول الله أن الهجوم خير وسيلة للدفاع. فسار إليهم في حمارة القيظ ومشقة الجوع والعطش وقلة ما يحمل عليه جنودا لا تجد لنفسها ما يحملها مئات الأميال، في قفار غير مواتية وقبائل غير موالية، فإما غزاهم وإما أقنعهم بأن يقبعوا في عقر دارهم، ويدعوا الدعوة تأخذ سبيلها إلى الناس كافة.

وأي هذا كان فهذا السير مدرسة في الأهبة والدربة واكتساب الثقة وامتحان الإرادة ستتلاحق الجيوش الكبرى بعده.

وبدت للأعين الظواهر الأولى للامتحان فاعتذر بعض وقبل النبي اعتذارهم. وأسفر النافق عن وجهه من بعض فكان من المنافقين قوم يجتمعون في دار يهودي يثبط المسلمين فأمر رسول الله بتحريقها، ولكنه استأنى ببعض أقاموا "مسجد الضرار" ليفرقوا بين المسلمين. ولما سألهم فيم أقاموه قالوا: لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة، ولما استيقن فساد نيتهم انصرف إلى غزوته في تبوك، حتى إذا رجع منها أمر بهدمه فهدم.

لكن طاعة الله ورسوله كانت أظهر وأبهر. فجهز عثمان وحده الجيش بتسعمائة بعير ومائة فارس ثم أضاف ألف دينار فجعل رسول الله يقلبها ويردد (ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم) وحث الصحابة على النفقة لحمل المقاتلين.

جاء أبو بكر بكل ما يملك (٤٠٠٠ درهم) فقال له النبي: (هل أبقيت لأهلك شيئا؟) قال: الله ورسوله.

وجاء عمر بنصف ما يملك فقال له: (هل أبقيت لأهلك شيئا؟) قال: نعم مثل ما جئت به.

وبهذا الروح حمل العباس وطلحة بن عبيد الله وسعد بن عبادة من أموالهم وحمل عبد الرحمن بن عوف مائتي أوقية وعاصم بن عدي ستين وسقا. وكان النساء يبعثن بما يقدرن عليه. ونزل القرآن في المتخلفين، واعتذر الرسول لمن لم يقدر على حملانهم ومنهم الأشعريون، ثم حققت لهم السماء آمالهم في أن يجاهدوا معه، فجاءته إبل فبعث إليهم. وخرج عبد الله بن أبي بن سلول بعسكر من عسكر رسول الله ثم لم يلبث أن انخذل في نيف وثمانين من المنافقين رجعوا إلى المدينة.

وتفقد رسول الله ثلاثة من صالحي المسلمين عز عليه غيابهم وسار بجيشه.

* * *

وعطش الناس عطشا شديدا فدعا رسول الله ربه فأرسل سحابة هطلت عليهم فارتووا ودوابهم وإبلهم وأخذوا من الماء حاجتهم. وكانوا يجوعون. فقصدوا مرة إلى رسول الله يسألونه أن ينحروا بعض الإبل واعترض عمر مخافة أن يعجز بعض الجيش عن المسير، فدعا رسول الله بنطع فبسطه ثم دعاهم فجاءوا بفضل طعامهم: كف من ذرة أو كف من تمر أو كسرة خبز حتى اجتمع طعام يسير ودعا لهم بالبركة فأكلوا حتى شبعوا وملأوا أوعيتهم، قال ﷺ: (أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى بها عبد غير شاك فتحجب عنه الجنة).

ونفد الماء وأنفذ رسول الله من يبحثون عن مصادره فصادفوا امرأة على بعير يحمل قربتين فيهما الماء حملتهما من بعيد فتوجهوا بها إلى رسول الله فدعى في الماء بالبركة فارتووا وأطلقوها ولم ينقص ماؤها وانطلقت تذيع بما كان.

وبلغ الجيش تبوك فوضع حجرا صار قبلة مسجدها وأومأ النبي بيده إلى الحجر وما يليه إيماءات لها مغزاها فقال: ما ها هنا شام وما ها هنا يمن وأقام بضع عشرة ليلة ينتظر العدو.

ثم علم أن هرقل في "ممتنع بلاده" بحمص يتفادى الصدام على مبعدة عشرات الأيام من تبوك، فهو عليم بأن رسالة الله لا تقهر وكان قد كابد حرب المسلمين في مؤتة بثلاثة آلاف، وهم الآن عشرة أمثالهم ويقودهم الرسول الذي كتب الله النصر له. واستشار رسول الله الناس في الوثوب على الروم:

قال عمر: يا رسول الله إن كنت أمرت بالسير فسر.

قال ﷺ: لو أمرت بالسير لم أستشر.

قال عمر: إن للروم جموعا كثيرة وليس بالشام أحد من أهل الإسلام وقد دنونا وقد أفزعهم دنوك فلو رجعنا في هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله أمرا.

وما كان صدفة أن يرد على المشورة في الوثوب عمر منبها على عدم السير إلى الروم ما لم يؤمر الرسول به، ولا كان صدفة أن يترك فتح الشام لعمر، ولا كان صدفة أن يكون جنود هذا الجيش جند الفتوح التي ستتم بعد نحو عامين فيما وراء الحجر الذي صار قبلة المسجد.

وفي العودة كان ماء قليل، في عين نهى النبي أن يسبق أحد إلى مائها، وسبق إليها رجلان فاستنفدا ما فيها فقال لهما رسول الله ﷺ ما شاء أن يقول ثم وضع يده في الماء ودعا الله ليجعل فيه البركة فجاشت العين بماء عظيم كفى الجيش.

وقال رسول الله لمعاذ بن جبل وهم راجعون: (يا معاذ يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ما ها هنا ملئ جنانا) ورآه الناس بعد سنين قد ملئ بساتين!

وفي العودة بعث خالدا في أربعمائة فارس وعشرين إلى ملك دومة الجندل وأدرك خالد قلة جيشه وطمأنه عليه الصلاة والسلام بأنه سيجده يصيد البقر، حتى إذا أدركه بليل وجده كذلك فاستأسر الملك وسار مع خالد إلى رسول الله. فلما رآه سجد له قال رسول الله [لا. لا.] وحقن دمه وفرض عليه الجزية.

وبهذا ازداد طريق العرب إلى الروم أمنا بمصالحة أصحاب هذا الموقع الحربي الذي تجتمع فيه وتنطلق منه الطرق.

وبنى ﷺ في طريق عودته ستة عشر مسجدا تبدأ بمسجد تبوك. ودخلت تبوك وما دونها في أرض العرب من ذلك الحين.

الثلاثة الذين خلفوا:

أما الذين تخلفوا وافتقدهم ولم يسأل عن سواهم فكانوا في هم يقيمهم ويقعدهم. وربما كان أوثق وأدق أن ننقل خبرهم عن كعب بن مالك وهو واحد من السابقين الذين بايعوا على الجهاد في بيعة العقبة فهو لا يتخلف حيث يدعوه الرسول ويأمره الله تعالى بقوله {ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله} ولما آخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار آخى بين كعب وبين طلحة بن عبيد الله فكانا من أبطال أحد الذين ذادوا عن ذات رسول الله ﷺ فلكعب في الجهاد منزلة مرتجاة وهو – بعد – شاعر من الثلاثة المشهورين بشعراء الرسول.

قال كعب: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلا من تبوك ثاب إلى لبي وعلمت أني قد فعلت ما لم يرض الله ورسوله في تخلفي عنه.

فقلت: أكذبه؟... فلم يتجه لي... وعلمت أني لن أنجو إلا بالصدق.

فلما صبح رسول الله المدينة.. جاء المتخلفون فجعلوا يعتذرون ويحلفون له – وكانوا بضعة وثمانين رجلا – فقبل منهم واستغفر لهم.. وجئت فسلمت عليه فابتسم ابتسامة المغضب وقال لي (ما خلفك. ألم تكن ابتعت ظهرك) (بعيرك)؟

فقلت: والله يا رسول الله لو جلست بين يدي غيرك لرجوت أن أقيم عنده عذري لأني أعطيت جدلا ولكني قد علمت أني إن كذبتك اليوم أطلعك الله عليه غدا ففضحت نفسي فوالله ما كان لي عذر في التخلف عنك وما كنت قط أقوى مني حين تخلفت عنك.

فقال رسول الله ﷺ: (أما هذا فقد صدقكم فقم حتى يقضي الله فيك)...

ونهى رسول الله عن كلامنا، أيها الثلاثة خاصة، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا. فكنت أخرج وأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق ولا يكلمني أحد وآتي رسول الله وأسلم عليه ولا أسمعه يرد. فأقول: ليت شعري هل رد في نفسه؟ وكنت أصلي قريبا منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي، فإذا التفت نحوه أعرض عني.

وفجأه كتاب من ملك غسان يدعوه للحاق به قال: فقلت حين قرأته وهذا من البلاء أيضا: أن يطمع في رجل من أهل الشرك. فعمدت إلى تنور فسجرت فيه الكتاب حتى إذا مضت أربعون ليلة إذا رسول رسول الله يأتي فقال لي:رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك ولا تقربها وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك. فقلت لامرأتي الحقي بأهلك فكوني فيهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما هو قاض.. فلبثنا في ذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة.. فلما صليت الصبح وقد ضاقت

علي الأرض بما رحبت وضاقت علي نفسي، فأنا كذلك إذ سمعت صوت صارخ على ظهر سلع (جبل بالمدينة): يا كعب بن مالك أبشر. فخررت لله ساجدا.. وآذن رسول الله بتوبة الله علينا حين صلى الفجر.. ثم انطلقت أتيمم رسول الله – حتى دخلت المسجد. فلما سلمت على رسول الله قال ووجهه يبرق من السرور: (أبشر بخير يوم مر عليك مذ ولدتك أمك).

قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟قال: (لا بل من عند الله) وكان إذا استبشر كأن وجهه قطعة قمر...

قلت:

إن من توبتي إلى الله أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله ورسوله.

قال ﷺ: (أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك)...

وكان ما نزل في شأني من القرآن قوله تعالى: {وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت} إلى قوله: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين}.

ويعلق كعب على هذه الآيات قائلا: وليس الذي ذكر الله من تخلفنا عن الغزوة ولكن لتخليفه ﷺ إيانا وإرجائه أمرنا عمن تخلف واعتذر إليه فقبل منه.

وحل أجل عبد الله بن أبي بن سلول فمات، وصلى عليه النبي وشيع جنازته تطييبا لقلب ولده عبد الله وهو من السابقين في الأنصار وتأليفا لقلوب الخزرج. ونهى الله تعالى الرسول بعد ذلك عن الصلاة على المنافقين إذ نزلت: {ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره}.

حج أبي بكر بالناس:

وحج أبو بكر بالناس، وكانوا ثلاثمائة، سنة تسع، ونزلت أوائل سورة (التوبة) وقال رسول الله (لا يبلغها إلا رجل مني) فبلغها علي لأبي بكر ومن معه فلما كانوا بمنى قرأ علي عليهم ثلاث عشرة آية من أول السورة تنبذ عهود من لم يفوا بعهودهم من المشركين وتمهلهم أربعة أشهر مع إتمام عهد المشركين الذين لم يظاهروا على المسلمين ولم يغدروا بهم إلى مدتهم.

ثم نادى: لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. أما حج رسول الله فكان في ذي الحجة سنة عشر.